وظائف الدولة إزاء الكون في الشريعة الإسلامية

د. رحيل غرايبة*

تاريخ وصول البحث: 2021/05/30م تاريخ قبول البحث: 2021/06/29م

ملخص

تهدف هذه الدراسة لبيان وظائف الدولة التي تؤديها تجاه الكون الذي نعيش فيه باعتبار ما للدولة من سلطة وبما تتوافر لديها من إمكانات وطاقات تتولى حماية المصالح العامة، والمحافظة على المنافع المشتركة، والقيام بالواجبات الكفائية التي تنوء بها كواهل الأفراد، وقد اتبعت في هذه الدراسة المنهج الوصفي والمنهج الاستقرائي، وقد توصلت الدراسة إلى أنه واجب على الدولة المحافظة على الكون بجميع مكوناته من مياه وحيوان وتربة وغازات، وليس هذا فحسب وإنما يجب على الدولة أن تسعى لاكتشاف مجاهيله وتوظيفها لمصلحة الإنسان ومنفعته مع المحافظة على البيئة والتوازن الحيوي، وبما يحفظ للأجيال القادمة حقوقها ومصالحها.

The functions of the state in relation to the universe in Islamic Law

Abstract

This study aims to demonstrate the functions performed by the state towards the universe in which we live. Considering that the state has the power, capacities, and potentials to protect public interests, preserve the shared benefits, and fulfill the competency duties that burden individuals

I followed in this study the descriptive method and the inductive approach. This study concluded that the state is responsible for preserving the universe with all its components: water, animal, soil, and gas. In addition, the state must strive to discover its unknowns and employ them for the benefit of humans, while preserving the environment and its vital balance, in a way that preserves the rights and the interests of the coming generations

* أستاذ مشارك، الجامعة الأردنية.
rohilegh@yahoo.com

المقدمة.

تتحمل الدولة في الفقه الإسلامي مسؤوليات كبيرة وعديدة في المجالات المختلفة، ومن هذه الوظائف العظيمة في قدرها وأثرها هي تلك المتعلقة بالكون، انطلاقاً من مفهوم استخلاف الله للإنسان في الأرض وتحميله الأمانة الكبرى القائمة على معنى حفظ المخلوقات جميعها والعناية بها؛ من أجل القيام بدورها المنوط بها من قبل الخالق جل وعلا الذي له الخلق كله والأمر كله، وله التدبير الحكيم.

وفي هذا البحث سوف يتم الاقتصار على وظائف الدولة في الفقه الإسلامي المتعلقة بالكون[1]، وتسليط الضوء على أهمية هذه الوظيفة العظيمة، ولفت انتباه الباحثين نحو التفصيل الفقهي في هذه المهمة؛ من أجل بيان الرأي الفقهي في هذه المسألة أولاً، ومن أجل تطوير العمل وتحسين الأداء البشري إزاء مرافق الكون التي سخرها الله ﷻ للإنسان؛ ليكون قادراً على الإعمار والاصلاح ومقاومة الفساد الذي يعود بالضرر على البشرية كلها، وعلى المخلوقات جميعها، امتثالا لقوله تعالى: ﴿https://www.almaany.com/quran-b/7/85/وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾[الأعراف: 85].

مشكلة البحث.

- ما وظائف الدولة وواجباتها تجاه الكون؟
- ما التأصيل الشرعي لهذه الواجبات؟

منهج الدراسة.

اتبعت في هذا الدراسة المنهج الوصفي حيث بينت ما هو قائم فعلاً، واعتمدت على المنهج الاستنباطي، وذلك بالوصول بالكليات إلى الجزئيات المتعلقة ببيان وظائف الدولة في التشريع الإسلامي تجاه الكون.

الدراسات السابقة.

لم أعثر على دراسة متخصصة تتناول دور الدولة في الإسلام في المحافظة على البيئة، وما عثرنا عليه عبارة عن دراسات تتحدث عن الحفاظ على البيئة بشكل عام، وبما أن المحافظة على البيئة تحتاج إلى جهود وتشريعات وإمكانات مالية وسلطات إدارية كان دور الدولة هو الأهم، وهو الذي يحقق للكون توازنه ويحافظ على جودته، ومن الدراسات التي وقفنا عليها في موضوع المحافظة على البيئة بشكل عام الدراسات الآتية:

- رؤية الشريعة الإسلامية ومنهجها في الحفاظ على البيئة دراسة في الواقع الفلسطيني، د. محمد محمد الشلش، جامعة القدس المفتوحة .
- حماية الشريعة الإسلامية للبيئة الطبيعية دراسة فقهية مقارنة، د. هناء فهمي، https://mksq.journals.ekb.eg/article_18602_9f73edc79c9d875fa2c17d86a4373eb8

.pdf مجلة كلية الشريعة والقانون بطنطا، العـــدد الثلاثون، الجزء الأول 2018م، وهي دراسة لم تتناول وظائف الدولة كما أنها أسرفت في تناول الكثيـر من
التفصيلات التي أخرجت البحث عن موضوعه.

- الحماية الجنائية للبيئة في ظل الشـريعة الإسـلامية والقانون الجزائري للباحثة حنان عزيرية، وهو بحث مشـترك متعلق بالجانب الجزائي في القانون مقارنة بالشريعة الإسلامية.
- واجب الحماية الدولية للبيئة الطبيعية للباحث محمود السيد حسن داود.

أهداف الدراسة.

- بيان الوظائف التي يجب على الدولة القيام بها تجاه الكون، والأدلة الشرعية التي تستند إليها تلك الوظائف.
- إظهار أهمية المحافظ على الكون باعتباره البيئة التي يعيش فيها الإنسـان ويعتمد عليها في اشـباع حاجاته وتلبية متطلبات حياته.
- بيان أهمية التنمية المستدامة التي توازن بين إشباع حاجات الإنسان والمحافظة على البيئة ومصالح الأجيال القادمة.

أهمية الدراسة.

للدراسـة أهمية كبيرة من حيث إنها تبين أن واجبات الدولة ليسـت مقتصـرة على إشـباع الحاجات العامة للمواطنين من الأمن والعدالة والدفاع وغيرها، بل عليها واجب المحافظة على الكون في ظل هذا الاسـتنزاف الحاصـل في الموارد الطبيعية وما يخلفه من تلوث عام في كافة الأنظمة البيئية.

المطلب الأول: اكتشاف مجاهيل الكون.

المطلب الثاني: رعاية عالم الحيوان.

المطلب الثالث: رعاية عالم النبات.

المطلب الرابع: العناية بعالم المياه.

المطلب الخامس: المحافظة على الغلاف الجوي والعناية بعالم الغازات التي تحيط بالأرض.

المطلب السادس: العناية بالتربة على اليابسة.

تناولت الدراسة وظائف الدولة في عدة مطالب على النحو الآتي:

المطلب الأول: اكتشاف مجاهيل الكون.

اكتشاف نواميس الكون وما أودعه الله فيه من أسرار من خلال العلم والسير في جنبات الأرض، والنظر في ملكوت الله والتبصر والتدبر والوقوف على الحقائق، وإعمال العقول من أجل الفهم.

يقول الإمام الغزالي[2]: "قد أمر الله تعالى بالتفكر والتدبر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى وأثنى على المتفكرين فقال تعالى: **﴿وَالَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾**[آل عمران: 191]".

ومن هنا وجدنا أن أول ما أنزل الله على قلب رسوله الكريم من خلال الوحي قوله تعالى: **﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾**[العلق: 1-5].

فالقراءة طريق العلم وبوابته، والقراءة أداة التعلم والاطلاع والبحث، والعلم طريق الإيمان والهداية إلى الحق، وطريق الوصول إلى الله ومعرفته وعبادته والاستعانة به، والقراءة لها أوجه وأشكال وأنماط متعددة منها:

الوجه الأول: قراءة الكتب والمخطوطات وكل ما خطته أقلام العلماء قديماً وحديثاً، حيث أشار القرآن إلى (القلم) فالقلم أداة الكتابة من أجل حفظ العلم وتدوين الحقائق، وبعد ذلك نشرها على نطاق واسع وحفظها وتداولها عبر الأزمان المتعاقبة؛ من أجل اطلاع الأجيال على علوم السابقين، ومن أجل بناء الخلف على جهود السلف؛ حتى لا تضيع الأفكار، ولا تهدر ثمرات عقول المفكرين في كل مراحل التاريخ؛ لأن العلوم يبنى بعضها على بعض، وتنضج الأفكار وتنقح من خلال النشر والاطلاع والشرح والنقد والتصحيح والتقويم، وقد أقسم الله بالقلم في سورة أخرى فقال: **﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾**[القلم: 1-2]، مما يدلل بوضوح على أهمية الكتابة والتدوين لمختلف العلوم والمعارف؛ من أجل حفظها وتداولها ونشرها وتعميمها وتطويرها وإنضاجها والبناء عليها، فقد أقسم الله بالقلم، وما تم تسطيره من حقائق وعلوم ومعارف وهي إحدى نعم الله على الإنسان التي تسهل عليه سبل الهداية في الحياة الدنيا والآخرة، فالقلم أول مخلوقات الله، وأقسم الله به لعظم دوره ومكانته ورفعة قدره[3].

والقراءة تكون باللسان، وتكون بالقلوب، وتكون بالعيون والأبصار، وأفضل أنواع القراءة وأتمها ما كانت فيها جميعاً؛ بالعين واللسان والقلب والعقل والروح؛ من أجل تمام التدبر واكتمال الجهد البشري بتحصيل المعرفة والوصول إلى الحكمة.

من خلال الإجماع على أن هذه الآيات أول ما نزل على قلب النبي محمد ﷺ، يتبين بوضوح أن أول تكليف أنزل على النبي وأمته تكليف القراءة والسعي للعلم وتحصيل المعرفة ولذلك نستطيع القول: إن العلم هو التكليف الأول للإنسان الذي يبنى عليه بقية التكليفات، ويمكن القول إن الإسلام دين العلم والمعرفة، وأشد الضرر الذي يلحق بالبشر مسلمين وغير مسلمين يكون من الجهل والجهلاء.

الوجه الثاني: قراءة في ما خلق الله في الكون، وما في السموات وما في الأرض، ولذلك يمكن القول إن القراءة قراءتان[4]: قراءة في كتاب الله المسطور، وقراءة في كتاب الله المنظور في الكون الواسع الممتد، والقراءة في الكون تكون بإعمال العقل

والنظر في موجودات الله جميعها وفهم أســـرارها وتدبر حكمة الله البالغة في تقديرها وخلقها، وهناك آيات كثيرة في هذا السـياق، ومن جملة هذه الآيات قوله تعالى: ﴿**قُلْ سِـيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ۚ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِـئُ النَّشْـأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾[الأنعام: 20].

هو أمر من الله لعباده بالســير في جنبات الأرض والتفكر في الموجودات، كيف وجدت، وكيف نشـــأت، ومن أحدثها ابتداءً، والنظر إلى نهايات الأشياء ومآلاتها[5].

وقال تعالى: ﴿**وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ**﴾[آل عمران: 119].

مدح الله عباده الذين يكثرون التفكر والتدبر في خلق الســماوات والأرض وأنه طريق الإيمان والهداية إلى الحق ومعرفة الصواب وملامسة الحقائق واكتشاف القوانين والعلاقات التي تحكمها بدقة متناهية، وأنها تسير وفق نظام محكم لا يعلمه حق العلم إلّا أصحاب العقول والبصائر.

إن أوامر الله للناس بالسير في الأرض والتفكر في خلق السموات والأرض على هذا النحو الواضح والمتكرر يؤدي إلى بلورة مفهوم مهم وكبير وعلى قدر كبير من العظمة فهو جانب مهم من العبودية لله، بالإضـــافة إلى ما يترتب عليه من آثار ونتائج منها:

أولاً: تعميق معاني الإيمان في نفوس المؤمنين[6]، وإزالة الشبهات والهواجس التي تزعزع الإيمان بالله وقدرته من جانب، ومن جانب آخر تعد طريقاً للبحث عن الحقيقة لمن يريد البحث عنها بموضـــوعية وصـــدق، ليتعرف على وجود الخالق وقدرته وعظمته من خلال إدراك عظمة خلقه ومن خلال دقة نظام الكون وإحكامه الذي ينفي العبث بإطلاق عند أصـــحاب العقول، وفي هذا يقول ابن قيم الجوزية: وإذا تأملت ما دعى الله ســبحانه في كتابه عباده إلى الفكر فيه أوقعك على العلم به ﷻ وبوحدانيته وصفات كماله ونعوت جلاله[7].

ثانياً: اكتشـاف القوانين الحاكمة للكون، واكتشـاف جملة الحقائق المتعلقة بالوجود والتعرف على المخلوقات التي خلقها الله، ومعرفة الأمم الكثيرة والعديدة من الحيوان والطير في البر والبحر، والاطلاع على حقائق معيشـــتها وطرق تكاثرها، ودورها المرســـوم في الأرض والكون، وفهم القوانين والنواميس المرتبطة ببقائها وحفظ جنســـها، وطريقة عملها، وفهم العلاقة القائمة فيما بينها من جهة، وعلاقتها مع الإنسان من جهة أخرى، وللأصفهاني عبارة تكتب بماء الذهب حول أهمية إعمال العقل في اكتشـاف مجاهيل الكون وتوظيفها لمنفعة الإنســان حيث يقول: ولما جعل للإنســان قوة الفكرة ترك من كل نعمة أنعمها تعالى عليه جانبًا يصلحه هو بفكرته؛ لئلا تبطل فائدة الفكرة، فيكون وجودها عبثًا[8].

ثالثاً: امتلاك القدرة على العناية بالمخلوقات وسبل عيشها ووجودها، وتسهيل دورها، ومساعدتها على القيام بدورها، ولا يتم ذلك إلّا من خلال العلم والمعرفة والسير في الأرض وإنعام النظر في الكون وإعمال العقل[9]؛ من أجل الوصـول إلى الحقائق المتعلقة بها؛ امتثالاً لأمر الله بالقيام بالأمانة الملقاة على عاتق الإنسان.

رابعاً: امتلاك القدرة على تسخير موجودات الكون في خدمة البشرية، وتحسين سبل حياة الناس، وإصلاح حياتهم وطرق معيشتهم، وتخفيف المعاناة والمشقة، والعمل على توفير الوقت والجهد، وتوجيه المجتمعات الإنسانية نحو الإيمان المفضي إلى رغد العيش، والحياة الفضلى القائمة على التعارف والتعارف بين الشعوب والأمم في مجالات البر والتقوى وتوفير سبل السعادة ورفع عوامل الإثم والعدوان والخصام، ورفع الضنك والقيد والضيق من خلال نفي الفساد ومنع سفك الدماء.

وبناءً على ما سبق، فإن من أهم وظائف الدولة أن تحرص على إنشاء المراكز العلمية ومراكز البحث والاستكشاف المتعلقة بعلوم الكون والموجودات، وكذلك الحرص على إيجاد فرق العناية بالمخلوقات من العلماء المتخصصين في جوانب المعرفة المختلفة، الذين يرصدون ويراقبون فصائل المخلوقات والحيوانات جميعها.

قال تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ**﴾[آل عمران:190]، وروي عن عائشة أنها قالت لما نزلت هذه الآية على النبي قام يصلي...، ثم قال: (ويلٌ لمن قرأها ولم يتفكر بها)[10].

فالتفكير[11] في خلق السماوات والأرض ليس منهجاً فردياً فحسب؛ بل هو منهج جماعي منظم بإشراف الدولة؛ ليكون بطريقة مؤسسية فاعلة، وبطريقة تؤدي إلى تراكم العلم والمعرفة في هذا الجانب، وإيجاد العلماء المتخصصين بدقائق الأمور وتفاصيلها، حتى يتم تنفيذ مقاصد هذه الآية الكبرى والآيات الأخرى المشابهة لها في الغاية والمقصد والطلب.

المطلب الثاني: رعاية عالم الحيوان.

يعد عالم الحيوان من عوالم الكون الرئيسية، ويتشكل من مجموعة كبيرة من الأمم التي تعيش في البر والبحر على شكل تجمعات وممالك لها أنماط معيشية وأدوار مرسومة بعناية، مثل ممالك النحل والنمل، ومملكة الأسود والنمور والضباع، وعالم الحيتان والأسماك في البحار، وعوالم كثيرة لا عدّ لها ولا حصر، ولقد استطاع الإنسان أن يجمع بعض المعلومات المهمة من خلال المشاهدة والاستقصاء على مدار التاريخ[12].

يقول الله تعالى في هذا السياق: ﴿**وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ**﴾[الأنعام: 38].

هذه الآية تبعث على التفكير العميق من خلال الإشارة في وقت مبكر من عمر البشرية أن عوالم الحيوان في الأرض والطيور تشبه عالم الإنسان من حيث التنظيم والعلاقات وطرق الحياة مع الاختلاف والتباين في الخلقة والتكوين والغايات والأدوار الحياتية.

يقول الطبري في تفسير هذه الآية: "وهو غير غافل عن عمل كل شيء دب على الأرض صغير أو كبير ولا عمل طائر طار بجناحيه في الهواء، بل جعل ذلك كله أجناساً مجنسة وأصنافاً مصنفة، تعرف كما تعرفون، وتتصرف فيما سخرت له كما تتصرفون، ومحفوظ عليها ما عملت من عمل لها وعليها، ومثبت كل ذلك من أعمالها في أم الكتاب..."[13].

ونقل الطبري روايات عديدة حول هذه الآية الكريمة، تتحدث عن عدل الله تجاه جميع المخلوقات بما فيها عالم الحيوان، وأن الله يقتص من الظالم للمظلوم منها، فكيف بالإنسان المزود بالعقل والفهم والإدراك والعلم.

من الأمور المعلومة أن الله خلق عالم الحيوانات وفق عناية مقدرة على غاية من الحكمة، وجعلها مسخرة لخدمة الإنسان وتسهيل سبل العيش للبشرية، فبعضها للركوب والنقل وحمل الأثقال، وبعضها لأكل لحومها وألبانها، وبعضها يصنع من صوفها وأوبارها لباساً يقي الإنسان برد الشتاء وحر الصيف، وبعضها يستخرج منه العطور والدواء للاستشفاء، وبعضها تستخدم للزينة.

قال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّن بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ**﴾[النحل: 80].

وقال تعالى: ﴿**وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ**﴾[النحل: 66].

وقال تعالى: ﴿**وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾[النحل: 7].

وقال تعالى: ﴿**وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾[النحل: 8].

هذه الآيات الكثيرة في هذا السياق تظهر بوضوح أن هذه الأصناف الكثيرة من الحيوانات التي سخرها الله للإنسان تقتضي منه أن يتحمل مسؤولية العناية بها ورعايتها[14]، وتصبح من وظائف الدولة كذلك التوجه بشكل مؤسسي إلى رعاية هذه الأصناف حق الرعاية، من باب حفظ حقوق أفراد شعبها في الحياة والعيش الكريم، وعلى الدولة تعميم ثقافة العناية بهذه الحيوانات ورعاية حقوقها من خلال فلسفة الرفق الموّثقة بالأحاديث ويمكن تلخيص وظيفة الدولة إزاء عالم الحيوانات على النحو الآتي:

أولاً: إيجاد مؤسسة عامة برعاية الدولة تعنى بعالم الحيوان على نحو علمي متخصص[15]، بحيث تشرف على هذا الجانب في ظلال فلسفة الإسلام الواسعة المنبثقة في هذا المجال من مفهوم الخلافة في الأرض ومفهوم الأمانة التي حملها الإنسان، وذلك على طريق حفظها والعناية بها وتسهيل سبل عيشها، ودرء المفاسد التي تتهددها[16]، والإشراف على استمرار نسلها وبقاء نوعها، والانطلاق نحو تحسين السلالات وحفظها من الانقراض[17].

ثانياً: توجيه طائفة من طلبة العلم للتخصص العلمي في العلوم المتعلقة بفهم عالم الحيوان وحفظ أفرادها وسلالاتها، ولذلك تكون الأولوية متابعة السلالات التي تتعرض للانقراض نتيجة الصيد الجائر، أو لعدم توافر البيئة المناسبة، أو تعرضها لآفات طبيعية تؤدي إلى فنائها، أو حدوث خلل في التوازن الطبيعي بين فصائل الحيوانات المختلفة، وغالباً ما يكون هذا الخلل نتيجة العبث أو التدخل البشري القائم على الجشع والجهل، وبعيداً عن الأسس العلمية والمعرفية.

ثالثاً: توجيه الأفراد لعناية ورعاية حيواناتهم المملوكة لهم، من خلال مراعاة سبل عيشها واستمرارها في حياتها، وتوفير ما تحتاجه من طعام وشراب، وتهيئة عوامل تكاثرها وحفظ نسلها[18].

فقد جاء في الحديث عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: عذبت امرأة في هرة سجنتها حتى ماتت، فدخلت فيها النار لاهي أطعمتها وسقتها إذ حبستها، ولا هي تركتها تأكل من خشاش الأرض[19].

يقول النووي: فيه دليل لتحريم قتل الهرة، وتحريم حبسها بغير طعام أو شراب[20]؛ لأن التعذيب لا يكون إلا لفعل محرم أو ترك واجب.

فهذا الحديث له دلالات كثيرة وعظيمة فيما يخص علاقة الإنسان بالحيوان، حيث يترتب عليها دخول الجنة أو النار، مما يشير بوضوح إلى أن الإنسان يتحمل مسؤولية كبيرة منظورة إزاء هذه المخلوقات، وتصبح جزءاً من العبادة عندما تكون وفق الصراط السوي ووفق ما أمر الله، ووفق الأسس العلمية والمعرفية التي تهدي إلى طريقة التعامل الصحيح مع هذه العوالم والأمم من الحيوانات والطيور.

وروي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: بينما رجل يمشي بطريق اشتد عليه العطش، فوجد بئراً فنزل فيها فشرب ثم خرج، فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان قد بلغ مني، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه حتى رقى، فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له، قالوا: يا رسول الله، إن لنا في البهائم أجراً؟ فقال: في كل كبد رطبة أجر[21].

وفي رواية عن أحمد "أن الجمل شكا للرسول بأن صاحبه يجيعه ويتعبه، فسأل الرسول: من رب هذا الجمل، فقيل رجلٌ من الأنصار، فقال له: أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها"[22].

لقد رفع الرسول ﷺ من خلال توجيهاته لأصحابه من مستويات التعامل مع هذه الحيوانات، لتصل إلى درجة تحمل المسؤولية المنبثقة من مهمة الاستخلاف للإنسان، ومهمة حمل الأمانة العظمى في هذا الكون، ولا تقتصر المسألة على الرفق وطيب القلب والمشاعر الرقيقة، وإنما هي عبادة ويترتب عليها الأجر والثواب ودخول الجنة أو النار في الآخرة، فالمسألة أكبر بكثير مما يتصور الآخرون.

- نهى رسول الله ﷺ عن التحريش بين البهائم[23]؛ لأن التحريش بين البهائم يلحق بها الضرر، وهو ضرب من ضروب العبث، والتسلية في إلحاق الألم في الحيوان مثل مصارعة الديكة والثيران وغيرها[24].
- كما ورد في سنة الرسول ﷺ أنه نهى أن نجعل الحيوانات أهدافاً للرمي، لعن النبي ﷺ من مثّل بالحيوان[25].

وهناك أحاديث كثيرة تنهى عن صبر البهائم، وعن تعذيبها وحرقها بالنار، وعن التفريق بينها وبين ولدها، وهناك أحاديث تنهى عن لعن الحيوانات وشتمها، وهناك نهي واضح عن استخدامها لغير فطرتها، ولغير ما أعدت له.

رابعاً: تشكيل البعثات العلمية التي تجوب البحار والفيافي؛ من أجل رعاية العوالم الأخرى من الحيوان خارج ملكية الإنسان مثل: الحيوانات التي تعيش في الغابات والمحيطات المتجمدة وفي أعماق البحار؛ من أجل حماية وجودها والعمل على حفظ جنسها، واستمرار تكاثرها ورعاية نسلها، والحفاظ على العوامل التي تديم البيئة المناسبة لحياتها واستمرار معيشتها،

حتى تبقى قادرة على القيام بدورها المرسوم والمقدر من الخالق العظيم، وفقاً للقاعدة التي تقضي بأن الله خلق كل شيء بقدر وحكمة بالغة ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[الفرقان: 2].

ومن المحزن فعلاً أن تسبق الدول العلمانية إلى القيام بهذه المهمة، بينما أمة مفهوم "الاستخلاف في الأرض" وأمة مفهوم "الأمانة العظمى" والرسالة السامية للوجود الإنساني تتخلف عن مهمتها النبيلة في حفظ موجودات ورعاية عالم الحيوانات؛ من أجل القيام بدورها الطبيعي الذي خلقت من أجله.

خامساً: وضع منظومة تشريعية تنظم علاقة الناس بعالم الحيوانات[26]، وتفرض رعايتها والعناية بها عند من يملكها، وكذلك ترسخ واجب الحفاظ عليها بشكل عام، وتجرم قتلها أو تعذيبها أو الاعتداء عليها، وتستثني ما أحله الله لطعام الإنسان وإقامة حياته، وفي حالة منع إيذاء الإنسان وحماية حياته إذا تعرضت للخطر.

ولذلك كانت وصية أبي بكر للجيوش في الحروب والقتال أن (.. ولا تعقرن شاة، ولا بعيراً إلا لمأكلة)[27].

كما أن الرسول الكريم نهى عن اتخاذ الحيوانات أهدافاً للرماية ونهى عن اتخاذ الدواب كراسي.

قال الرسول ﷺ: لا تتخذوا الدواب كراسي[28].

سادساً: تسخير الحيوانات وتدريب القابلة منها للتدريب.

هناك أصناف عديدة من الحيوانات التي تتفاوت فيما منحها الله من قدرات وإمكانات في خدمة البشر.

فهناك بعض أصناف الكلاب التي يتم تدريبها على أعمال الحراسة لقطعان المواشي وحراسة البيوت والمزارع، وبعضها يتم تدريبها للكشف عن المخدرات وبعض الممنوعات، وبعضها لجر العربات وهذا ينطبق أيضاً على بعض فصائل الطيور وكذلك الخيول، وهناك الآن استعمال لبعض أنواع الحشرات في أعمال مقاومة الآفات.

هناك بعض الحيوانات التي يمكن تسخيرها في أعمال كثيرة وعديدة، وربما في المستقبل يتم اكتشاف أمور أخرى غير معروفة سابقاً، فهناك كثير من الأدوية واللقاحات التي يتم استخراجها من الحيوانات أو بواسطتها.

قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ ۖ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾[المائدة: 4].

يقول الزمخشري: الجوارح: الكواسب من سباع البهائم والطير، كالكلب والفهد والنمر والعقاب والصقر والبازي والشاهين. والمكلب: مؤدّب الجوارح ومضريها بالصيد لصاحبها، ورائضها لذلك بما علم من الحيل وطرق التأديب والتثقيف، واشتقاقه من الكلب؛ لأن التأديب أكثر ما يكون في الكلاب فاشتقّ من لفظه لكثرته من جنسه[29].

هذه الآية تشير بوضوح إلى إمكانية تعليم بعض الحيوانات مثل كلاب الصيد وجوارح الطير وتدريبها على أعمال الصيد وأحل الله صيدها بالنص الواضح أو الأعمال الأخرى الكثيرة والعديدة[30]، مما يفسر معنى تسخير هذه العوالم للإنسان؛ من أجل أن يقوم بدوره في الإعمار أو الإصلاح على أكمل وجه.

المطلب الثالث: رعاية عالم النبات.

من العوالم الأخرى التي خلقها الله على الأرض عوالم النبات ذات الأصناف والأشكال العديدة المختلفة في ألوانها وثمارها وأعمارها وأدوارها تجاه الكون، وهي لا تقل عن عوالم الحيوان من حيث الأهمية والوظيفة، ولا من حيث الإعجاز والدلالة على قدرة الله وعجيب صنعه[31].

إن إعمال النظر في هذه العوالم النباتية الجميلة يؤدي إلى نتائج مبهرة حول إبداع الخالق، خاصة تلك الأشجار المثمرة المختلفة في طعومها وأذواقها وجمالها على نحو لا يكاد يطيق العقل البشري تفسيره، فهذه الأشجار التي تزرع في أرض واحدة وتراب واحد وتسقى بماء واحد ثم تخرج هذه الأصناف من الثمار الطيبة المتنوعة على نحو لا يستطيع الإنسان عده ولا إحصاءه، من النخيل والأعناب والتين والزيتون وغيره ...

يقول ابن رجب: تدقيق النظر والفكر في حال النبات يستدل به المؤمن على عظمة خالقه وكمال قدرته ورحمته فتزداد القلوب هيمانا في محبته وإلى ذلك الإشارة[32] بقوله: **﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾**[الأنعام: 99].

وقال تعالى: **﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾**[الرعد: 4]. من المتفق عليه أن الله سخر عالم النبات أيضاً من أجل استكمال مقومات الحياة، ومن أجل تمكين الإنسان المستخلف في الأرض على حمل الأمانة[33]، ولذلك يمكن التعريف بمهمة الإنسان اتجاه عالم النبات على النحو الآتي:

1) بذل الجهد وإعمال العقل بمعرفة عوالم النبات بشكل صحيح وعلى نحو دقيق، ومعرفة أنواعها وأصنافها وثمارها ومعرفة كل ما يتعلق بحياتها ونشأتها وبذورها وكيفية تكاثرها وما يؤثر في نموها وإنتاجها، من أجل إتقان التعامل معها على أسس علمية ومعرفة صادقة، وبعد ذلك يتم توثيقها وتوريثها إلى الأجيال، وهذا يقتضي إنشاء المعاهد العلمية والكليات المتخصصة وتخريج العلماء من أهل التخصص والمعرفة والخبرة بكل ما تنبت الأرض.

لأن القاعدة العلمية والمعرفية هي التي تمثل الحلقة الأولى في تحديد دور الإنسان في كيفية تعامله مع هذه الكائنات، وتحديد أنماط الاستفادة منها وتسخيرها على نحو صحيح في حياة الإنسان.

نشرت دراسة عام (2011) حول علم النبات[34]، قدرت عدد الأنواع النباتية في الكرة الأرضية بحوالي (8.7) مليون نوع، منها (6.5) على البر و(2.2) في البحر، وكثير من هذه النباتات ذاتي التغذية وتشكل عنصراً مهماً من عناصر دورة الغذاء الطبيعية[35].

ولذلك فإن علماء الإسلام التفتوا إلى أهمية العلوم المتعلقة بعالم النبات من خلال التوجيه القرآني، كما جاء في سورة الأنعام: ﴿**وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۗ انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾[الأنعام: 99]، ومن الكتب التي ألفها علماء المسلمين حدائق الرياض وغوصة الفياض في علم النبات لتقي الدين الناشري.

يقول ديورانت: وبعث علم النبات بعثاً جديداً على أيدي المسلمين في ذلك العصر وقد كاد ينسى بعد ثاوفراسطوس؛ فقد وضع الإدريسي كتاباً في النباتات وصف فيه ثلاثمائة وستين نوعاً مختلفاً منها، ولم يقتصر اهتمامه بها على الناحية الطبية، بل عنى أيضاً بالناحية العلمية النباتية[36].

ويفهم من هذا أن توجيه الدولة فئة من أبنائها على سبيل الواجب الكفائي لدراسة علوم النبات يعتبر إحدى واجبات الإنسان المعروفة من أجل التعرف على قدرة الخالق وجميل صنعه؛ لأن من شأن ذلك زيادة الإيمان، بالإضافة إلى تشكيل المعرفة الضرورية من أجل امتلاك القدرة على حمل الأمانة التي تحملها الإنسان بوصفه خليفة الله على الأرض، وقد قام العلماء المسلمون بترجمة جهود السابقين في هذا المجال حيث تم ترجمة كتاب التاريخ الطبيعي للعالم الروماني (بليني الأكبر) وهو مرجع ضخم مكون من (27) مجلداً، كما ترجمة جهود علماء اليونان في زمن الخلفاء العباسيين[37].

ولم يكتف العلماء المسلمون بالترجمة بل عنوا بدراستها وشرحها ونقدها، فأفردوا بعضها ورفضوا بعضها، ثم انتقلوا إلى مرحلة التأليف وإضافة فروع جديدة لعلم النبات، وقد اهتم علماء اللغة بأسماء النباتات وأثبتوها في كتبهم مثل عبد الملك البصيري، والخليل بن أحمد، وابن السكيت والجوهري، وابن سيده وابن منظور صاحب لسان العرب، والأصمعي وإخوان الصفا[38].

أما العالم هشام بن إبراهيم الكرماني فقد صنف كتاباً خاصاً تحت اسم النبات، كما فعل الجاحظ بتأليف كتاب خاص بالحيوان، وكذلك العالم المتخصص القدير أبو حنيفة الدينوري له مصنف متخصص باسم (النبات والشجر) جمع فيه ما يزيد على (1120) صنفاً من أصناف النبات في الجزيرة العربية، كما درس العلامة ابن سينا النبات دراسة علمية متخصصة مهتماً بالنباتات الطبية، ثم ظهر العالم الأندلسي (ابن جلجل) وبعد ذلك ظهر ابن البيطار الذي يعد حجة علمية باهرة في علم النبات والطب[39].

ينبغي أن يستمر دور الدولة في تشجيع العلماء وطلاب العلم على مواصلة التصنيف في هذا المجال؛ تعبيراً عن أهمية دور الدولة ووظيفتها في العناية بعالم النبات، ومن أجل تمكين الدولة من القيام بوظيفتها الكونية على أسس معرفية صحيحة متفقة مع قواعد الإيمان.

2) زراعة النباتات والاستفادة من ثمارها سواء كانت خضاراً أو حبوباً أو أشجاراً مختلفة من أصناف الفواكه والحمضيات والنخيل وغيرها، وهذا الدور الذي يقوم به الإنسان منذ زمن قديم، وقد استطاع تحصيل قدر كبير متوارث من العلم والمعرفة والخبرة حول أصناف كثيرة من النباتات، كما استطاع الوصول إلى معرفة احتياجاتها من الماء والغذاء ونوع التربة وهيئة

الطقس والبيئة المناسبة لكل صنف، كما استطاع الوصول إلى الوقت المناسب من العام لزراعة كل نوع، وفي كيفية قطف الثمار وتخزين المحصول على نحو علمي مدروس بعناية، وهذا يعد من أهم وظائف الإنسان نحو النبات ومن أهم وظائف الدولة في الفقه الإسلامي.

وهنا يجدر العلم أن زراعة النبات المختلفة يعد ضرورة من ضرورات الحياة؛ لأن حياة الإنسان تعتمد اعتماداً مباشراً في غذائها على المحاصيل الزراعية، مما يجعل الانشغال بذلك يحقق مقصداً من مقاصد الشريعة، ولا يفوتنا هنا أن نورد النص الذي أورده الحطاب في هذا الأمر والذي يكتب بماء الذهب والذي يعتبر دستورا في المحافظة على الثورة النباتية وصيانة المال من التلف حيث يقول: قال الشيخ يوسف بن عمر من كان له شجر ضيعها بترك القيام بحقها؛ فإنه يؤمر بالقيام فيها؛ فإن لم يفعل؛ فإنه مأثوم ولم نسمع أنه يؤمر ببيع ذلك إذا فرط فيه، انتهى. وقاله الجزولي أيضا وزاد: ويقال له ادفعها لمن يخدمها مساقاة لجميع الثمرة[40].

والأمر الآخر أن زراعة النباتات من أعظم أبواب الأجر وأعلى مراتب العبادة؛ لأن النباتات من شأنها أن تؤدي إلى تحقيق حاجات الإنسان ومقتضيات عيشه وعيش حيواناته، كما أنها تعد مصدراً للغذاء والدواء، ومصدراً للراحة والجمال وتوفير الظلال، وتلطيف الأجواء، مما يجعلها عاملاً من عوامل توفير السعادة للآدميين، من حيث توفير الفواكه اللذيذة والروائح الزكية والمناظر الجميلة.

وقد استدل العلماء لذلك بقوله تعالى: **﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾**[هود: 61].

ووجه الدلالة أن قوله: واستعمركم فيها يعني أمركم من عمارتها بما تحتاجون إليه وفيه الدلالة على وجوب عمارة الأرض للزراعة والغراس والأبنية[41].

وجاء في الحديث الصحيح: "ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلّا كان له صدقة[42].

وزراعة الأشجار والحض على ذلك واضح أشد الوضوح في نصوص عديدة من القرآن والسنة.

فقد قال تعالى: **﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ۖ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾**[الملك: 15].

فيفهم من هذه الآية أمر للناس أن يستثمروا في الأرض التي مهدها الله لحياتهم وتنقلهم وزرعهم، والبحث عن أسباب الرزق منها، ومن ذلك استصلاحها بزراعة النبات.

وقال تعالى: **﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ﴾**[هود:61].

والاستعمار يشمل معان عديدة منها استصلاحها بزراعة الأشجار ومختلف أنواع النباتات المثمرة وغير المثمرة.

وقد ورد في الحديث أن الرسول ﷺ قال: إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها[43].

3) إبعاد الآفات عن النباتات التي تفتك بها وتحول دون نموها وقيامها بدورها الطبيعي المناط بها في الكون وهذه الآفات بعضها يأتي من كائنات حية أخرى مثل بعض أنواع البكتيريا والفيروسات التي تخلق الأمراض وتؤدي إلى تعطيل حياة النبات، أو أحياناً يأتي الضرر من الرعي الجائر من بعض أصناف الأنعام الذي يؤثر في التوان الطبيعي، وأحياناً بفعل الإنسان نفسه من خلال قطع الأشجار بإسراف ودون مراعاة عوامل بقائها واستمرارها، أو من خلال السموم ومخلفات المصانع والأبخرة التي تلوث الجو وتؤثر على نمو النباتات وحياتها، أو بقطع الماء عنها أحياناً، أو من خلال الأفعال غير المدروسة علمياً التي تؤدي إلى إحداث خلل بيئي كبير ينتج عنه كارثة نباتية ماحقة.

وبناءً على ما سبق، فإن وظيفة الدولة أن ترسم دورها المنضبط بالتشريع نحو تحقيق العناية والرعاية بعوالم النبات بطريقة علمية مدروسة بحيث توجه الناس في زراعتهم بطريقة صحيحة، وأن تعرف الأمراض التي قد تلحق بالنباتات وتحول دون وقوعها من خلال اعتماد مبدأ الوقاية أولاً، وبعد وقوعها باستحداث الأدوية المناسبة، والعلاج المدروس وفق القواعد العلمية والخبرة الإنسانية في هذا المجال.

لقد نهى رسول الله ﷺ عن قطع الأشجار حتى في القتال والحرب، فأوصى أفراد الجيوش: "...لا تعقروا نخلاً ولا تقطعوا شجراً ولا تهدموا بيعة"[44].

قال البيهقي: (والأولى حمله على ما حمله عليه أبو داود؛ وهو أن النهي والوعيد في من اعتدى على شجرة سدر أو نحوها مما ينتفع به الناس والدواب بظله أو ثمرته فلا يجوز قطعه ظلماً وعدواناً بغير حق)[45].

كما أن العلماء[46] جعلوا قطع الأشجار من جملة الإفساد في الأرض الذي ورد النهي عنه في كتاب الله: ﴿**وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ**﴾[البقرة: 205].

كما أن النهي عن قطع الأشجار يفهم من دلالة قوله تعالى: ﴿**وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا**﴾[الأعراف: 56].

ويفهم من جملة الأحاديث التي تنهى عن التغوط في ظلال الأشجار إقامة مبدأ الحفاظ على الأشجار بوجه عام، وقد روى أبو داود في صحيحه: "اتقوا الملاعنَ الثلاثة: البراز في الموارد، وقارعة الطريق، والظل" وهنا يقصد الفعل الذي يستجلب اللعن من الناس[47].

وهذه النصوص جميعاً توثق أصلاً مقطوعاً به في الفقه الإسلامي يقوم على حفظ الأشجار والعناية بها ورعايتها واستصلاحها، وحفظ أسباب بقائها وديمومتها، ومنع كل ما يلحق بها الضرر، أو كل ما يمنع الانتفاع بها.

4) المحافظة على التوازن الطبيعي الذي جعله الله طريقاً لحفظ عوالم الكون، وهذا يقتضي فهم العلاقة الطبيعية القائمة بين عوالم الحيوان والنبات، وكذلك بناء العلاقة الطبيعية الموزونة من الإنسان تجاه هذه العوالم؛ حيث إن الله أقام الكون كله وما فيه من موجودات على نحو متوازن دقيق من جهة وتبادل تكاملي بين المخلوقات من جهة أخرى.

فالحشرات على سبيل المثال تساعد النبات في نقل حبوب اللقاح فيساعد في تكاثرها وحفظ جنسها، وبعض الحشرات تتغذى على الفطريات التي تعيش على أوراق النبات وسيقانها، فتقلل أثر الفطريات الضارة على النبات، والطيور تتغذى على

الحشرات كذلك فتحافظ على أعدادها ضمن الحدود الطبيعية، والطيور الكبيرة تتغذى على الطيور الصغيرة فتسهم في عملية وجودها وتكاثرها على نحو موزون؛ ولذلك عندما عمدت الصين إلى التخلص من طيور (الدوري) الذي يشاركهم في المحصول، أدى إلى خلق آفة الحشرات التي قضت على محصولهم في ذلك العام[48].

وهذا يدعونا إلى فهم العلاقة المتسقة بين موجودات الكون على نحو طبيعي مقدر بإحكام من أجل إيجاد الدور البشري في العناية بهذه الموجودات ضمن دورها الطبيعي المتوازن؛ لأن إحداث أي خلل في هذه المنظومة الطبيعية سوف يؤدي إلى فساد وخلل كبير يصعب معالجته.

قال تعالى: **﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾**[الحجر: 19].

5) العناية الحثيثة بالغابات والنباتات الأخرى غير المثمرة، التي تشكل رئة العالم، فهذه الأعداد الكبيرة من الأشجار والنباتات التي تتشكل منها الغابات لها دور كبير ومهم في الكون ونحو عالم الحيوان ونحو العالم الإنساني؛ حيث إنها تزود الفضاء عادة بـــ (الأكسجين) التي تعد روح الحياة لعوالم الإنسان والحيوان، بالإضافة إلى أدوارها الأخرى في تلطيف الأجواء ودورة الرياح وجلب الغيوم المطيرة، والحفاظ على التربة وتشكيل أغطية حماية للحيوانات وغذائها ومخابئها وتكاثرها.

وهنا يظهر دور الدولة في رعاية الغابات الموجودة والعناية بها من أجل استمرارها، وحمايتها من الآفات ومن كل أشكال الاعتداءات عليها من بني البشر، وليس هذا فحسب بل إن الدولة معنية بزيادة رقعة الغابات بحيث يتم وضع خطة دائمة لزراعة رقاع الأراضي الخالية من الأشجار بما يناسبها، ويجب على الدولة أن تحول دون اتساع الرقعة الصحراوية الآخذة بالازدياد على حساب الأراضي المزروعة[49].

وهذا لا يمنع الدولة من الاستفادة من الغابات لأغراض الصناعات الخشبية وصناعة الورق، ولكن يجب أن يتم ذلك بقدر محسوب بعناية، بحيث يتم زراعة شجرة أو شجرتين مقابل كل شجرة يتم إزالتها، وقد نجحت بعض الدول بتبني هذه الاستراتيجية بحيث ازدهرت لديها تجارة الأخشاب في الوقت الذي زادت فيه عدد الأشجار وزادت رقعة الغابات لديها.

6) كما أن الدولة يجب أن تحافظ على سلالات الأشجار وأنواعها وحفظ بذورها، خاصة تلك الأنواع المهددة بالانقراض وهنا تتحمل الدولة مسؤولية حفظ وجودها وتكاثرها بطريقة علمية، وبعبارة ابن طفيل: "أن لا يستأصل أصولها ولا يفني بزرها"[50].

كما أن الدولة ينبغي أن تعنى في حفظ الأصول النقية لبذور النباتات؛ حيث إن هذه الأصول تعد من المقتنيات الثمينة لكل دولة ولكل بيئة جغرافية.

ومن وظائف الدولة أن تعمل على تحسين البيئة المناسبة لحياة الأشجار من خلال دراسة نشأتها والعوامل الخارجية المؤثرة في مسيرة حياتها.

كما أن الدولة معنية بتوجيه الدارسين والعلماء المختصين بالجينات والشيفرات الوراثية للنباتات، بحيث يكون العلم عاملاً من عوامل الحفاظ عليها وعلى دورها الطبيعي في الكون بعيداً عن العبث الذي يؤدي إلى إحداث الخلل والفساد الذي يلحق بها.

قال تعالى: ﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ**﴾[الشعراء: 7].

قال تعالى: ﴿**وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ**﴾[الحجر: 19].

هذه الآيات تدعونا إلى الدراسة والبحث العميق من أجل الوقوف على كل ما يتعلق بالنباتات من معرفة وعلاقات وقوانين ونواميس مقدرة؛ من أجل حفظها والعناية بها على الوجه الأكمل[51].

ولا بد قبل أن نختم هذا الموضوع من الإشارة إلى الشريعة دعت إلى إحياء الموات من الأرض بزراعتها مما يزيد من الإنتاج ويحد من البطالة ويعمل على استغلال الأرض والاستفادة من طاقتها، فقد قال ﷺ: "من أحيا أرضا ميتة فهي له"[52]. وقد اعتبر جمهور العلماء من الصاحبين والشافعية والحنابلة أن هذا تشريع عام لا يحتاج إلى إذن من الدولة يجوز الإقدام عليه لكل واحد[53]، كما أن الفقه الإسلامي ابتكر مجموعة من الصيغ التي تؤدي إلى عدم تعطيل منفعة الأرض، وتعمل على استغلالها أفضل استغلال ومن هذه الصيغ المزارعة وهي تقوم على زراعة الأرض مقابل الخارج منها، والمساقاة والتي تعتمد على العناية بالشجر سقاية وتسميدا وتعشيباً مقابل جزء من الخارج منها، كما أجاز عقد السلم الذي يعتبر عقدا تمويليا يستعين به المزارع في الحصول على رأس المال لاستصلاح أرضه، وأثبت بعض الحقوق الارتفاق المتعلقة بالمياه كحق الشرب[54].

المطلب الرابع: العناية بعالم المياه.

تعد المياه من أهم مكونات الكون، ومن أهم مقومات الحياة[55]، وقيل بأن الماء من أوائل ما خلق الله في الوجود، قال تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ**﴾[هود: 7].

وهذه الآية تشير بوضوح بأن الله خلق الماء قبل خلق السماوات والأرض، ووردت عدة روايات في البخاري ومسلم وأحمد حول هذا الأمر، ومن ذلك قوله ﷺ: كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض"[56]، كما أن الله قد جعل الماء أساساً في خلق الحياة وفي خلق كل حي، فقال تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ**﴾[الأنبياء: 30].

فيقول العلماء إن الماء يدخل في تكون أجسام الكائنات الحية جميعها بنسبة كبيرة تصل إلى 70% من تكوين الأجسام، وهي تقارب نسبة الماء إلى اليابسة في الأرض.

وجاء في سورة النور: ﴿**وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ**﴾[النور: 45].

وقال بعض العلماء والمفسـرين: إن جميع الحيوانات خلقت من نطفة، والنطفة هي الماء بالمعنى الخاص؛ لأن النطفة هي الماء المتولد من الذكر[57].

وقيل خلق ماء أي لفرط احتياجه إلى الماء وقلة صـبره عنه، وعدم قدرته على العيش دونه[58]. المحافظة على عالم المياه مبدأ أصـيل توثقه النصـوص القاطعة من القرآن والسـنة، وكذلك من العقل، ونستطيع القول: إن المحافظة على المياه والعناية بها يعد من صـميم المقاصـد الشرعية؛ لأن الماء يعد إحدى أهم الوسـائل لحفظ الحياة، وحفظ الحياة ضـرورة من الضـرورات الخمس المتفق عليها[59]، وإذا كانت الحياة لا تقوم إلّا بالماء، فهذا يؤدي إلى اعتبار الماء ضرورة من الضرورات الإنسانية[60].

كما أن حفظ الماء وتوفيره واجب من أجل التمكن من القيام بأعمال الطهارة، والطهارة شرط مهم لصحة الصلاة وبعض العبادات الأخرى، مما يؤكد على أهمية التوجه من الأفراد ومن المجتمعات نحو الحرص على المحافظة على عالم المياه، ويكون الحرص على الماء والعناية به من جنس العبادة؛ لتحقيق طهارة البدن واللباس والمكان[61].

قال تعالى: **﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾**[الأنفال: 11].

كما أن الماء حاجة للنباتات والحيوانات وهي مسخرة لخدمة الإنسـان وتسـهيل معيشـته، فيصـبح عيش الإنسـان بالوجه الاعتيادي متوقف على توفير الماء، مما يؤدي إلى القول بوجوب العناية به ووجوب توفيره عذباً صالحاً للشرب والرّي.

- **<u>أشكال المحافظة على المياه:</u>**

العناية بعالم المياه يأتي بعدة أشكال وعدة مراتب، بحسب الحاجة إليها وغايات استعمالها، ومن هذه الأشكال:

1) المحافظة على موارد المياه الطبيعية من ينابيع وأنهار وبحيرات وبحار، وأحواض مائية، والعناية بها تقتضي اتخاذ الأسـباب التي من شـأنها اسـتمرار وجودها، وعدم الاعتداء عليها وعدم تغيير طبيعتها، وعدم الانتقاص من خيرها وعدم تعريضها لكل أشكال الضرر التي تلحق بمصادر المياه لتكون صالحة للدور المهم المنوط بها في الحياة الطبيعية وأولها لتكون صالحة لشرب الإنسان، ودليل ذلك قوله ﷺ: لا يبولن أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل فيه"[62].

2) عدم الإسراف في استخدام المياه وعدم هدرها حتى لو كانت متوافرة بغزارة[63]، وفائضة عن الحاجة، روي أن الرسول ﷺ مر بسعد وهو يتوضأ، فقال: ما هذا السرف يا سعد؟ فقال: وهل في الماء من سرف[64]؟ قال: نعم، وإن كنت على نهر جار[65].

وهنا يعد هذا الحديث موجهاً للمسلمين للعناية بالماء والمحافظة عليه من خلال ترشيد استعماله وتوخي الحكمـة في استخدامه، بحيث يتم بقدر الحاجة، دون إسراف ودون هدر، والإسراف يتمثل بكل ما كان زيادة عن الحاجة[66].

وتأتي أهمية التوجيه النبوي من اللفظ على "ولو كنت على نهر جار" بمعنى أن الاسـتعمال يجب أن يكون في حدود الحاجة سـواء كان سـواء كان الماء قليلاً أو كثيراً، مما يدل على عمق المعنى وبعد النظر في الآفاق البعيدة،

ويشـكل نظرة اسـتراتيجية على غاية من الأهمية؛ من أجل التوفير بالمياه للآخرين من الناس والحيوان والنبات، وكذلك الإشارة إلى احتمال مجيء أزمان في المستقبل يصبح الماء شحيحاً لا يكفي لحاجات الناس في السقيا وأعمال الطهارة.

ولذلك نستطيع القول: إن مبدأ ترشيد استهلاك المياه مبدأ أصيل في الفقه الإسلامي قامت الأدلة القاطعة على توثيقه[67]، مثل: **﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾**.

قوله تعالى: **﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾**[الأعراف: 30].

وقوله تعالى: **﴿إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾**[الإسراء: 27].

وقوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾**[الفرقان: 67].

والماء من أولى الأمور التي تستحق الترشيد؛ وذلك لأهميته في الحياة، وشدة حاجة الإنسان إليه، وحاجة كل المخلوقات الحية إليه كذلك.

ويدخل في هذا استعمال أدوات الري التي ترشد استهلاك المياه، وزراعة الأصناف قليلة الاستهلاك للمياه أو التي تنمو في الأماكن الجافة قليلة الأمطار، وقد أورد علماء المسلمين إلى أن تطعيم النبات بعضها ببعض يؤدي إلى إنتاج أصناف قليلة الاستهلاك للمياه، وفي هذا يقول عن تركيب القراع عن العنصل[68]: فيها ويثمر قرعا كبارا مائلا للخضرة رزينا طيبا لا طعم للعنصل فيه ألبتة وهو مجرب ويستغني عن كثرة السقي بالماء[69].

3) العناية بالماء من خلال المحافظة على نظافتها، وعدم تعرضها للتلوث بكل أشكاله.

فالله خلق الماء طهوراً، فقال تعالى: **﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾**[الفرقان: 48].

ويقصد بـــ (ماء طهوراً) أي: طاهراً بذاته ومطهراً لغيره، بطبيعته التي خلقه الله عليها، ولذلك فإن نظافة الماء هي التي تجعله محتفظاً بهذه الصفة وهذه الطبيعة التي تعد من نعماء الله وإعجازه.

جاء في الحديث الذي رواه أبو هريره: "لا يبولن أحدكم في الماء الدائم الذي لا يجري ثم يغتسل فيه"[70].

فالحديث يعد توجيهاً لمزيد من النظافة والطهارة، ومن جملة ذلك المحافظة على الماء من التلوث، ومن الملوثات التي تلحق بالماء غالباً من خلال مخلفات الإنسان، ولذلك يجب أن يتخذ الناس كل ما من شأنه صيانة الآبار والأحواض المائية، والينابيع والأنهار من قاذورات الإنسان كلها وخاصة البول والغائط.

هذا الحديث يدعو إلى صيانة الماء من كل ما يلحق بطبيعته الطاهرة من أضرار، مثل ما يلحق بمصادر المياه من المخلفات الصناعية، أو المواد المشعة، وكذلك صيانتها من قذر الحيوانات؛ من أجل المحافظة على نقائها وجمالها، ومن أجل أن يبقى مصدراً لسعادة الإنسان ومصدراً للجمال.

4) تنقية المياه الملوثة والمياه العادمة[71].

يبدو أن زيادة أعداد السكان زيادة كبيرة في العصور الحديثة أدى إلى حدوث مشاكل كبيرة متعلقة بزيادة حجم استهلاك الماء من جهة، ومشاكل أخرى متعلقة بمخلفات الإنسان والمياه العادمة، مما يحتم على البشرية الانتقال من خلال العلم والخبرة وتبادل المعرفة إلى ضرورة إتقان أساليب التعامل مع هذه المخلفات، وابتكار وسائل تنقيتها؛ من أجل تقليل الأضرار الناتجة التي تلحق بالتربة والنباتات ومصادر المياه والأحواض المائية، ومن أجل توافر إمكانية الاستفادة منها في بعض وجوه الاستعمال بعد التأكد من سلامتها ونقائها من العناصر المضرة.

ونحن نشهد في العصر الحاضر تطور الخبرة البشرية بإنشاء محطات التنقية التي تهدف إلى تنقية المياه العادمة وتقليل نسبة الضرر فيها، وأصبحت بعض الدول تعيد استعمالها مرة أخرى في أعمال الري، خاصة في ري الغابات والنباتات التي تستخدم لإنتاج أعلاف الحيوانات.

5) المحافظة على مياه الأنهار العامة والبحيرات الكبيرة داخل أراضي الدولة[72].

تتجلى وظيفة الدولة بوضوح من خلال الاضطلاع بمسؤولية الحفاظ على جداول المياه والأنهار والبحيرات التي تخرج عن ملكية الأفراد إلى الملكية العامة.

ولذلك لا بد للدولة من تخصيص بعض مؤسساتها للحفاظ على حياة الأنهار والبحيرات من استمرار نظافتها ونقاء مائها وحمايتها من كل عوامل التلويث وكل ما يلحق بها الضرر، وحمايتها من مخلفات الناس والحيوانات، ومن مخلفات المصانع وكذلك المياه العادمة؛ حتى تبقى قادرة على احتواء عوالم الأحياء داخلها، ومن أجل الاستفادة من مائها بأعمال الري وبقية الاستخدامات النافعة بطريقة منظمة، قائمة على ترشيد الاستهلاك وفقاً للأسس العلمية التي تحفظ دوام الماء وتجديده ليبقى بمستوياته الطبيعية.

وبالنسبة للأنهار والبحيرات ذات الملكية العامة والمشتركة، فينبغي المحافظة عليها والعمل على استمرار جريانها في مجراها الطبيعي وفقاً للقانون الدولي الذي ينظم التعامل معها بعدالة تحفظ حق جميع الدول صاحبة العلاقة، ولا يجوز لأي دولة التعسف في استخدام حقها وإلحاق الضرر بالدول الأخرى، ولا يجوز لدولة المنبع تحويل مجرى النهر أو الاستئثار بماء النهر لوحدها، فهذا من قواعد التعاون الدولي الضروري لتحقيق المصالح المشتركة عبر معاهدة دائمة تقسم الحصص الدولية، وتشرف على صيانة مياهه والعناية المستمرة بكل ما يتعلق بالنهر ومجراه الطبيعي، وبالنسبة للبحيرات ذات الشواطئ المشتركة تخضع كذلك لقواعد القانون الدولي الذي ينظم انتفاع الدول بقدر واضح تحدده معاهدة دائمة.

وفي هذا الصدد يتضح دور الدولة في الفقه الإسلامي بالتعاون مع الدول الأخرى في تحمل المسؤولية المشتركة للحفاظ على هذه الموارد بطريقة صحيحة؛ حيث إن هذا التعاون يأتي في سياق البر والمصلحة العامة المشتركة، ويحقق مقاصد الشريعة المتعلقة بحفظ ضرورات الحياة وحاجياتها.

6) المشاركة في المحافظة على مياه البحار والمحيطات.

لا يقتصر دور الدولة بتحمل مسؤولية المحافظة على عالم المياه داخل حدودها، وإنما هناك مسؤولية أخرى في بذل

الجهد المشترك بالعناية بمياه البحار والمحيطات؛ لأنها تمثل ملكية مشتركة لكل دول العالم وجميع الشعوب والأمم على وجه الأرض.

ومستند ذلك واجب الدولة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومنع الفساد الذي قد يحدثه البعض في عالم البحار والمحيطات مصداقا لقوله تعالى: ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ**﴾[الروم: 41].

يقول ابن عاشور بعد أن ذكر الأقوال في تقسيمها: يجوز أن يكون المعنى أن الله تعالى خلق العالم على نظام محكم ملائم صالح للناس فأحدث الإنسان فيه أعمالا سيئة مفسدة، فكانت وشائج لأمثالها: وهل ينبت الخطي إلا وشيجه، فأخذ الاختلال يتطرق إلى نظام العالم(73).

وتعود أهمية مياه البحار والمحيطات إلى جملة أمور تحقق المصلحة العامة المشتركة لكل شعوب الأرض وللعوالم الأخرى:

1. فهي أولاً تعد المصدر الأول والمهم لمياه الأمطار التي يحملها الريح إلى مختلف بقاع الأرض بأقدار متفاوتة، والأمطار هي قوام الحياة، ولذلك من أسماء المطر (الحيا)؛ لأنها مقوم رئيس من مقومات الحياة للإنسان والحيوان والنبات.
2. البحار والمحيطات التي تغطي ما يزيد عن 66% من مساحة الأرض تعد هي المغذي الرئيس والمزود الحقيقي للأنهار والجداول والأحواض المائية المرئية وغير المرئية.
3. البحار والمحيطات تعد الحاضنة الرؤوم لجملة من عوالم الأحياء التي تعيش فيها، من مختلف أنواع الحيتان والأسماك والأجناس الأخرى التي تزيد عن (2) مليون جنس بحسب بعض الإحصاءات الصادرة من مراكز الدراسات المتخصصة.
4. مياه البحار والمحيطات مسخرة لتنقل الإنسان عبر السفن والبوارج الضخمة التي تعد مدناً عائمة في البحر؛ حيث إن كميات البضائع التي يتم نقلها عبر مياه البحار والمحيطات أضعاف ما يمكن أن يتم نقله عبر البر أو الفضاء.
5. مياه البحار والمحيطات هي تعمل على تلطيف الأجواء وتغيير حركات الريح، وإحداث توازن دقيق في مجموعة القوانين والنواميس التي تنظم الكون والحياة والعلاقة بين الموجودات.
6. مياه البحار والمحيطات زاخرة باللؤلؤ والأحجار الكريمة مما يتخذه الإنسان حلية ثمينة مصدراً للعيش.
7. البحار والمحيطات مصدراً لغذاء الإنسان، حيث يستخرج منها لحماً طرياً وأنواع من المأكولات العديدة الأخرى قال تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ**﴾[النحل: 14].

يقول الإمام الرازي: واعلم أن منافع البحار كثيرة والله تعالى ذكر منها في هذه الآية ثلاثة أنواع: المنفعة الأولى: قوله تعالى: لتأكلوا منه لحما طريا، المنفعة الثانية: من منافع البحر قوله تعالى: وتستخرجوا منه حلية تلبسونها والمراد بالحلية اللؤلؤ والمرجان، المنفعة الثالثة: قوله تعالى: وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله(74).

ومهمة الدولة في المحافظة على مياه البحار من خلال الصور التالية:

1- المحافظة على نظافة الماء وبقائه على طبيعته التي خلقها الله؛ لأنها هي البيئة المناسبة للحياة البحرية وفق معيار التوازن المعجز في خلق الله، ولذلك يجب الامتناع عن قذف قاذورات الإنسان فيه ومخلفات المدن، فبعض الدول تجعل البحار مصباً لمجاري المياه العادمة، مما يؤدي إلى إلحاق الضرر بعالم البحار وعوالم الحيوانات التي تعيش فيها، ونتج عن ذلك جملة من المفاسد العظيمة التي لا حصر لها نتيجة هذا التصرف الأحمق، وقال جل وعلا ﴿**ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ**﴾[الروم: 41].

2- الامتناع عن تلويث مياه البحار والمحيطات الكبرى بالإشعاعات النووية؛ حيث إن بعض الدول تعمد إلى عمل تجارب تفجيرات نووية في أعماق البحار، وهذا يؤدي إلى جملة من المفاسد والأضرار الجسيمة التي تؤدي إلى تلويث الماء بالإشعاعات، وإلحاق الضرر كذلك بعوالم البحر من ممالك حيوانية ونباتية، ويعد التلوث النووي من أخطر أنواع التلوث التي تلحق بالموجودات؛ لأنها تبقى لمدة طويلة جداً، كما أنها تدخل في تكوين الجينات الحية مما يلحق بها تشوهاً كبيراً يخرجها عن طبيعتها، وهذا يؤدي إلى تعطيل دورها في المنظومة الكونية، ولذلك ينبغي الأخذ على أيدي هذه الدول التي تلحق ضرراً بالكون وعالم البحار والحياة من خلال المعاهدات الدولية الملزمة التي تمنع هذه الأفعال والجرائم الكبيرة ذات الأثر الفادح على البشرية وكل موجودات الكون.

3- التعاون الدولي عبر معاهدات واتفاقيات دولية تهدف إلى العناية بمياه البحار والمحيطات ونظافتها والحرص على بقائها على طبيعتها من خلال المراقبة الصارمة الحثيثة الدائمة والمستمرة، وضرورة إيجاد التشريعات الدولية التي تنظم هذا الشأن وتفرض عقوبة على كل ما يخالف بنود هذه الاتفاقيات، وينبغي أن يتم معالجة هذا الأمر بطريقة جماعية وجهد جماعي من كل دول العالم المتحضر من خلال المؤسسات الدولية التي تعمل تحت مظلة القانون الدولي العام.

4- تنظيم عمليات صيد الحيوانات البرية البحرية[75]؛ من أجل وقف عمليات الصيد الجائر الذي يلحق الضرر ببعض عوالم البحر[76]، وهذا يحتاج إلى دراسات علمية دقيقة؛ لأننا مطالبون بحفظ أجناس الحيوانات والحيلولة دون انقراضها[77]، ومحاولة إعادة ما انقرض منها برعاية إنسانية تملك الخبرة العلمية والعملية الكافية بتحقيق هذا الهدف النبيل، ومستند ذلك هو حق الدولة في تقييد المباح للمصلحة الشرعية، وهو ما تنص عليه القاعدة الفقهية "تصرف الإمام على الرّعية منوط بالمصلحة"[78]، وروى أبو داود عن عبدالله بن مغفل قال، قال رسول الله: لولا أن الكلاب أمة من الأمم، لأمرت بقتلها، فاقتلوا منها الأسود البيهم[79].

يقول الخطابي: عناه أنه كره إفناء أمة من الأمم وإعدام جيل من الخلق حتى يأتي عليه كله، فلا يبقى منه باقية؛ لأنه ما من خلق لله تعالى إلا وفيه نوع من الحكمة، وضرب من المصلحة، يقول إذا كان الأمر على هذا ولا سبيل إلى قتلهن كلهن، فاقتلوا شرارهن، وهي السود البهم، وأبقوا ما سواها لتنتفعوا بهن في الحراسة[80].

5- حفظ حق الأجيال القادمة بالتنمية المستدامة[81].

وهذا مبدأ مهم يجب مراعاته أثناء التعامل مع موجودات الكون من خلال ترشيد الاستهلاك في كل نعم الأرض، ليكون قائماً على الحكمة الموزونة التي لا تشكل اعتداءً على حق الأجيال القادمة إلى يوم القيامة.

ولقد تنبه سيدنا عمر إلى حق الأجيال القادمة في نعم الله التي أنزلها وقدرها في الأرض، من خلال ما دلت عليه الآية في شأن الأنفال والأفياء... عندما شملت بذكر المهاجرين وأشرك معهم الأنصار الذين آزروا ونصروا، ثم عطف عليهم فئة ثالثة: ﴿**وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾[الحشر: 10].

ومما قيل في تفسير هذه الآية: "... وهنا يمتد حبل الاستحقاق للفيء ومصارف الخير من بيت مال المسلمين لكل الأصناف التي ذكرتها السورة إلى يوم القيامة طالما ثبتوا على الإسلام والتوحيد"[82].

وهذا يجعلنا نؤصل لمبدأ إنساني عظيم وفي غاية الأهمية أن ما قدر الله في الكون والأرض من أقوات وخيرات ونعم ومسخرات إنما هي للبشرية إلى آخر الزمان، وهذا يقتضي التعامل مع خيرات الأرض وفق معيار عدم تفويت حقوق الأجيال القادمة التي لم تأتِ بعد[83].

وفضلا عن كون الإسراف اعتداء على حقوق الأجيال القادمة في الموارد فإنه يعتبر صورة من صور الإخلال بالتوازن البيئي وسبب من أسباب تلوث الكون، يقول النجار: ولما كانت الحقيقة أن كل إسراف استهلاكي ينعكس سلبا على التوازن البيئي، فقد جاءت التوجيهات الشرعية العملية تنبه إليه في إرشادها إلى سلوك في البيئة سلوك اقتصاد في كل مواردها[84].

المطلب الخامس: المحافظة على الغلاف الجوي والعناية بعالم الغازات التي تحيط بالأرض.

من مقومات الحياة الأخرى بالإضافة إلى ما سبق هو "عالم الغازات" من أكسجين وهيدروجين وثاني أكسيد الكربون، والنيتروجين والأوزون والهيليوم وغيرها....

وقد تنبه علماء المسلمين مبكرا لهذا الأمر، فهذا محمد بن أحمد بن سعيد الحكيم المقدسي أبو عبد الله التميمي (370هـ)، ألف رسالة في هذه المجال سماها مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء والتحرز من ضرر الأوباء[85].

فقد أفادت الدراسات العلمية المتراكمة وجود هذه الغازات، وتم التعرف على مواصفات كل واحد منها، بالإضافة إلى دوره في الحياة، وهذا موضوع علمي بحت، يمكن الرجوع إليه في مكانه، لكن يمكن الإشارة إلى شيء يسير منها مما يدلل على إعجاز الله في الخلق أولاً، وكذلك من أجل توجيه أفعال الإنسان والنشاط البشري بما يحفظ هذه الغازات وفق المعادلة الكونية الموزونة التي فطر الكون عليها.

فنلاحظ ببساطة أن غاز الأكسجين يمثل ضرورة ملحة للإنسان والحيوان، فهو في كل عملية شهيق أثناء التنفس يأخذ الأكسجين، وفي كل عملية زفير يخرج غاز ثاني أكسيد الكربون، وهذه العملية دائمة ومستمرة من الإنسان والحيوان بحيث لو

اختلت هذه المعادلة تعرض الإنسان للموت، بينما نجد أن النباتات تقوم بعملية التمثيل الغذائي عبر الأوراق مع أشعة الشمس، فتأخذ ثاني أكسيد الكربون وتخرج الأكسجين، مما يؤدي إلى عملية التوازن المعجز في الدور التبادلي بين الحيوان والنبات وفق منظومة كونية مقدرة ومنضبطة وموزونة بإحكام.

وهذا يترتب عليه أن البشر مطالبون بحفظ هذا التوازن وحفظ هذه المعادلة من خلال الخضوع لقانون الكون الصارم في هذا السياق؛ من أجل استمرار الحياة وبقاء الإنسان والحيوان والنبات معاً، وهذا يدلل بوضوح على المسؤولية المترتبة على الدول في الحفاظ على عالم الغازات والعناية بمعادلة وجودها وفق قانون التوازن الكوني.

الأمر الآخر الذي يمكن الإشارة إليه تتضح بعض معالم الدور الإنساني في هذا الشأن هو أن الله أحاط الكرة الأرضية بغلاف غازي مكون من الأوزون (O_3) وهو غاز الأكسجين الثلاثي، الذي يشكل طبقة خارجية حافظة لعالم الحياة على وجه الأرض، وهذه الطبقة تحمي الكرة الأرضية من الإشعاعات والانبعاثات الضارة التي تنتج عن الانفجارات الكونية العظيمة، التي لو قدر لها أن تصل الأرض لأحدثت فيها ضرراً عاماً يطال الإنسان والحيوان والنبات والموجودات جميعاً.

ولذلك تتجلى وظيفة الدولة في الفقه الإسلامي في هذه المسألة بأن تبذل جهدها على صعيد المجتمع الدولي في استصدار قانون دولي ملزم لجميع دول العالم بالعمل على المحافظة على الغلاف الجوي، وأن تلتزم كل الدول باتخاذ كافة الإجراءات التي تحقق هذه العناية، وضرورة الكف في المقابل عن كافة الأعمال التي تلحق ضرراً بالغازات المحيطة بالأرض ومن تطبيقات ذلك:

1. الحد من الانبعاثات الناتجة عن المصانع والمعامل وعوادم المركبات التي تتصاعد إلى طبقات الجو العليا، وتحدث تفاعلات كيماوية مع الغازات التي تتكون منها الطبقة الواقية في الغلاف الجوي.
2. ضرورة توجيه العقل الإنساني نحو استبدال المصانع التي ينشأ عنها انبعاثات مضرة، وضرورة التوجه نحو الاختراعات النظيفة التي تتناسب مع البيئة المحيطة وتحافظ على التوازن الطبيعي في الكون.
3. تشجيع البحث عن مصادر الطاقة المتجددة، مثل الاستفادة من الطاقة الشمسية، وكذلك طاقة الرياح أو حرارة باطن الأرض، وضرورة الاستغناء عن استعمال الوقود الأحفوري الذي يؤدي إلى إلحاق الفساد بالمنظومة الكونية التي يرتد ضررها على الإنسان والحيوان والنبات والتراب والماء وكل مقومات الحياة الرئيسية.
4. إنشاء المؤسسات العالمية والمنظمات الدولية التي تعنى بهذا الشأن ويتبع لها مؤسسات علمية ومراكز دراسات بحثية؛ من أجل الوقوف على الحقيقة.
5. العناية بالغلاف الجوي عن طريق السياسات الحكومية والتشريعات القانونية، التي تنظم النشاط الفردي والجماعي بالتعامل مع البيئة الطبيعية بكل مكوناتها، وتنظيم طريقة استخدام المواد وتوليد الطاقة وكيفية التعامل مع المخلفات.

وهذا الأمر يسير على صعيدين:

1- على صعيد الدولة الداخلي: بأن تتولى المجالس التشريعية وضع القوانين والأنظمة التي تكفل الحد من الضرر الناشئ عن الأنشطة البشرية تجاه الغلاف الجوي، وكذلك توفير مصادر الطاقة البديلة للسكان في تحصيل الإضاءة أو التدفئة، وكذلك توفير وسائل النقل النظيفة والجماعية، وتقليل الاعتماد على وسائط النقل التي تسهم في تلويث الهواء والفضاء.

2- على الصعيد الدولي: وتتحمل هذه المسؤولية المجتمع الدولي الذي يجب أن يتوجه بالعناية نحو صيانة الغلاف الجوي، وإيجاد التشريعات الملزمة للدول في هذا السياق.

ومثال ذلك ما حدث في (اتفاقية كيوتو)، وتمثل هذه الاتفاقية خطوة تنفيذية لاتفاقية الأمم المتحدة المبدئية بشأن التغير المناخي، وهي معاهدة دولية انبثقت من مؤتمر الأمم المتحدة المعني بالبيئة والتنمية الذي انعقد في ريو دي جانيرو في البرازيل عام (1992)، وقد تم وضع بروتوكول كيوتو عام (1997)، ودخل حيز التنفيذ عام 2005 بعد أن وقع عليه 175 دولة بروتوكول كيوتو الملحق باتفاقية الأمم المتحدة... UNFCCC.

إن المحافظة على الغلاف الجوي معتبر شرعاً باعتباره وسيلة لحماية مقاصد الشريعة من جانب العدم، فلما كان التلوث يلحق الأضرار البالغة بالإنسان جسما ومالاً، كان منع تلوثه والإضرار به مقصداً شرعياً، لقوله ﷺ: "لا ضرر ولا ضرار"[86]، ولقوله ﷺ: وإماطة الأذى عن الطريق صدقة[87]، وأذى التلوث يفوق أذى الطريق؛ لأن أذى الطريق يمكن إدراكه والتحرز منه بخلاف أذى التلوث كما أن ضرر التلوث عام يشمل الجميع ويؤثر على جميع مرافق الحياة في الحال والمآل[88] خلافا لضرر الطريق.

المطلب السادس: العناية بالتربة على اليابسة.

من أهم مقومات الحياة التراب[89]، الذي يعد مسرحاً للنشاط البشري فنحن خلقنا من تراب، ونتغذى على النبات الذي يتغذى من التراب، ثم نعود إليه في النهاية.

وفي هذا يقول الأصفهاني: المقصود من العالم وإيجاده شيئاً بعد شيء هو أن يوجد الإنسان، فالغرض من الأركان أن يحصل منها النبات، ومن النبات أن تحصل الحيوانات، ومن الحيوانات أن تحصل الأجسام البشرية ومن الأجسام البشرية، أن يحصل منها الأرواح الناطقة، ومن الأرواح الناطقة أن يحصل منها خلافة الله تعالى في أرضه فيتوصل بإيفاء حقها إلى النعيم الأبدي[90].

التراب مخلوق معجز بمكوناته من المعادن والمواد الحيوية، والتفاعلات الكيماوية، ولذلك فهو يصل إلى درجة ثمينة وعالية لدى المجتمعات البشرية تستحق التنافس والصراع.

ولما التراب هو أصل الإنسان ومآله فإنه يجب عليه أن يحسن إلى أصله ويحافظ على مآله، قال تعالى: ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ**﴾[الروم: 20]، وقال تعالى: ﴿**مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ**﴾[طه: 55].

وقد جعل الله تعالى الأرض وتربتها مسجدا وطهورا وعلى الإنسان أن يحافظ على نظافة مادة طهارته ومكان عبادته وسجوده، فالأرض كلها مسجد نتقرب إلى الله تعالى بعمارتها والمحافظة عليها، قال ﷺ: جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، وأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل[91].

والعناية بالتربة تكون بذات الطرق التي ذكرناها سابقاً عند حديثنا عن المياه والنبات "فليس الماء في هذا السياق إلا رمزا لموارد البيئة بصفة عامة ينطبق عليها جميعا في وجوب ترشيد الاستهلاك ما ينطبق عليه مهما تكن عليه من الوفرة والتجدد[92].

عن العناية بالنبات باعتبار أن التربة هي مادة حياتها، وقد تحدث الأصفهاني بنوع من الإبداع عن التربة وأنواعها بالنسبة للزراعة في كتابه عَلم المَلاحة في عِلم الفلاحة[93].

وإذا لم يكن العلماء السابقون فصلوا تفصيلا كبيرا في هذا الموضوع، فليس إهمالا منهم لهذا الأمر بل؛ لأنهم لم يتخيلوا أن يصل التلوث لهذا القدر بحيث يصبح مهددا لوجود الإنسان على هذه الأرض، وقد بين ذلك الدكتور عبد المجيد النجار عند حديثه عن مقصد حفظ البيئة حيث يقول:

وإذا كنا لا نجد عند علماء المقاصد إبرازا لهذا المقصد مقصدا مستقلا قائما بذاته ضمن ما قرّروه من المقاصد الضرورية، فلعل ذلك يكون راجعًا إلى أنهم لم يكونوا يتصورون أن هذا الإنسان الصغير قادر على أن يحدث الخلل في هذا العالم الكبير بما يعود على الحياة فيه بالضرر العظيم[94].

ويقول أيضا: ومن استقراء التوجيهات القرآنية والحديثية في هذا الشأن مضافا إليها الاجتهادات التطبيقية في التحضر الإسلامي يمكن تبين جملة من القواعد الشرعية العملية التي تلتقي عند تحقيق مقصد حفظ البيئة وصيانتها من التلوث[95].

الخاتمة.

توصلت الدراسات إلى النتائج الآتية:

1. للدولة بما تملكه من إمكانات وما لها من سلطات دور كبير في المحافظة على الكون بكل موجداته المادية والحيوية.
2. تستند مسؤولية الدولة تجاه الكون وما فيه من مكونات إلى الأدلة الشرعية التي أوجبت على الدولة رعايته والمحافظة عليه.
3. على الدولة أن تحافظ على التوازن البيئي وترشيد الاستهلاك والتخفيف من الضغط على الموارد رعاية لحق الأجيال القادمة.
4. على الدولة التنسيق مع الدول الأخرى الإسلامية وغير الإسلامية من أجل حماية الكون من التلوث بكافة أشكاله وصوره، وفق تشريعات ملزمة تحت مظلة القانون الدولي.
5. يقع على عاتق الدولة العمل على تشجيع البحث العلمي لاكتشاف مجاهيل الكون ومحاولة الاستفادة من إمكاناته لتحقيق رفاهية الإنسان ورفع المعاناة عنه، وإتمام عملية التسخير لموجودات الكون.

وأخيرا توصي الدراسة بالعمل على وضع مشروع ميثاق إسلامي ينظم التعامل مع الكون وكيفية استخدامه الاستخدام الأمثل وتقديمه للأمم المتحدة ليكون تشريعاً دولياً ملزماً لجميع دول العالم؛ لأن الإخلال بالتوازن الكوني يرتد أثره إلى الإنسانية جمعاء بلا استثناء.

والحمد لله رب العالمين.

الهوامش.

(1) للدولة في التشريع الإسلامي وظيفتان هما: رعاية الدين وسياسة الدنيا، وهو ما عبر عنه ابن خلدون بقوله: إنّ حقيقة الخلافة نيابة عن صاحب الشّرع في حفظ الدّين وسياسة الدّنيا فصاحب الشّرع متصرّف في الأمرين أمّا في الدّين فبمقتضى التّكاليف الشّرعيّة الّذي هو مأمور بتبليغها وحمل النّاس عليها وأمّا سياسة الدّنيا فبمقتضى رعايته لمصالحهم في العمران البشريّ وقد قدّمنا أنّ هذا العمران ضروريّ للبشر وأنّ رعاية مصالحه كذلك لئلّا يفسد إن أهملت وقدّمنا أنّ الملك وسطوته كاف في حصول هذه المصالح. عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي (808هـ)، ديوان **المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط2، 1988م، ج1، ص272.

(2) الغزالي: محمد بن محمد الطوسي، **المستصفى**، طبعة دار المعرفة، بيروت، ج4، ص423.

(3) يقول ابن خلدون حول أهمية الكتابة في الحياة الإنسانية: وأمّا الكتابة وما يتبعها من الوراقة فهي حافظة على الإنسان حاجته ومقيّدة لها عن النّسيان ومبلغة ضمائر النّفس إلى البعيد الغائب ومخلّدة نتائج الأفكار والعلوم في الصّحف ورافعة رتب الوجود للمعاني. ديوان **المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، ج1، ص509.

(4) يقول رشيد رضا: إن لله كتابين: كتابا مخلوقا وهو الكون، وكتابا منزلا وهو القرآن، وإنما يرشدنا هذا إلى طرق العلم بذاك بما أوتينا من العقل، فمن أطاع فهو من الفائزين، ومن أعرض فأولئك هم الخاسرون.. تفسير المنار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1990م، ج2، ص53.

(5) يقول رشيد رضا: ولذلك جاء القرآن يلح أشد الإلحاح بالنظر العقلي، والتفكر والتدبر والتذكر، فلا تقرأ منه قليلا إلا وتراه يعرض عليك الأكوان، ويأمرك بالنظر فيها واستخراج أسرارها، واستجلاء حكم اتفاقها واختلافها. **تفسير المنار** ج1، ص208.

(6) يقول الرازي: دلائل التوحيد محصورة في قسمين: دلائل الآفاق، ودلائل الأنفس ولا شك أن دلائل الآفاق أجل وأعظم كما قال تعالى: ﴿**لَخَلْقُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ**﴾[غافر: 57] ولما كان الأمر كذلك لا جرم أمر في هذه الآية بالفكر في خلق السماوات والأرض؛ لأن دلالتها أعجب وشواهدها أعظم، ج9، ص461.

(7) ابن قيم الجوزية: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين (751هـ)، **مفتاح دار السعادة**، دار الكتب العلمية، بيروت، ص187.

(8) الأصفهاني: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (ت 502هـ)، **الذريعة إلى مكارم الشريعة**، تحقيق: د. أبو اليزيد أبو زيد العجمي، دار السلام، القاهرة، 2007م، ص270.

(9) يقول عباس العقاد: القرآن الكريم لا يذكر العقل إلا في مقام التعظيم والتنبيه إلى وجوب العمل به والرجوع إليه، ولا تأتي الإشـــارة إليه عارضة ولا مقتضبة في سياق الآية، بل هي تأتي في كل موضع من مواضعها مؤكدة جازمة باللفظ والدلالة، وتتكرر في كل معرض من معارض الأمر والنهي التي يحث فيه المؤمن على تحكيم عقله، أو يلام فيها المنكِر على إهمال عقله وقبوله الحجر عليه. **التفكير فريضة إسلامية**، نهضة مصر، ط6، 2007م، ص5.

(10) رواه ابن حبان حديث، كتاب الرقائق، باب التوبة، ذكر البيان بأن المرء عليه إذا تخلى لزوم البكاء على ما ارتكب من الحوبات وإن كان بائنا عنها مجدا في إتيان ضدها رقم 620.

(11) ونظرا لأهمية التفكير وأثره في تعميق الإيمان بالله تعالى وتوظيف الكون لخدمة الإنسانية لتحقيق: عمارة الكون والخلافة فيه، جعل عباس العقاد عنوان كتابه التفكير فريضة إسلامية، وقد أصاب عين الحكمة في اختيار العنوان.

(12) وقد ورد ذكر الكثير من الحيوانات والحشرات في القرآن الكريم والسنة النبوية التي بينت عظمة خلقها وحددت وظائفها ومجالات الانتفاع بها، كما اهتم علماء المسلمون بموضوع الحيوان أيما اهتمام، فألفت العشرات من الكتب في المتعلقة بالحيوان، ومن ذلك كتاب الحيوان للجاحظ وحياة الحيوان الكبرى للدميري، كما ألفت كتب متخصـصـــة في نوع منها كالخيل والإبل وغيرها، د. هناء فهمي: **حماية الشريعة الإسلامية للبيئة الطبيعية دراسة فقهية مقارنة**، مجلة كلية الشريعة والقانون بطنطا، ص158.

(13) الطبري: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، (310هـ)، **جامع البيان في تأويل القرآن**، المحقق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 2000 م، ج11، ص344.

(14) وقد نص الفقهاء على أن للحيوان حقوقاً يجب رعايتها والمحافظة عليها، وفي هذا يقول العز بن عبد السلام: حقوق البهائم والحيوان على الإنســـان، وذلك أن ينفق عليها نفقةَ مثلها، ولو زمنت أو مرضـــت بحيث لا ينتفع بها، وأن لا يحملها ما لا تطيق، ولا يجمع بينها وبين ما يؤذيها من جنسها أو من غير جنسها بكسر أو نطح أو جرح. أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء (660هـ)، راجعه وعلق عليه: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، **قواعد الأحكام** ج1، ص167.

(15) وقد ذكر القنوجي أن من العلوم المهمة هو علم الحيوان، هو: علم باحث عن أحوال خواص أنواع الحيوانات وعجائبها ومنافعها ومضـــارها. والغرض منه: التداوي والانتفاع بالحيوانات والاجتناب عن مضـــارها والوقوف على عجائب أحوالها وغرائب أفعالها. أبجد العلوم، ص384.

(16) وذلك من خلال علم البيطرة وهي أصـــعب علاجا من أمراض الآدميين؛ لأن الدواب ليس لها نطق تعبر به عما تجد من المرض والألم، وإنما يستدل على عللها بالجس والنظر، فيفتقر البيطار إلى حذق وبصيرة بعلل الدواب وعلاجها؛ فلا يتعاطى البيطرة إلا من له دين يصـده عن التهجم على الدواب بفصـد، أو قطع، أو كي، وما أشـبه ذلك بغير مخبرة، فيؤدي إلى هلاك الدابة، أو عطبها.

الشيزري: عبد الرحمن بن نصر بن عبد الله، أبو النجيب، جلال الدين العدوي (ت نحو 590هـ)، **نهاية الرتبة الظريفة في طلب الحسبة**، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر الشريفة، ص384.

(17) أقرت الشريعة الإسلامية للحيوان أربعة حقوق هي الحق في الحياة، والحق في الغذاء والحق في منع الألم والحق في المحافظة على نوعه من الانقراض، وقد تأيدت هذه الحقوق بمؤيدات تشريعية وأخرى سياسية تتولاها الدولة بما له من قوة وسلطان. القرالة: **حقوق الحيوان وضماناتها في الفقه الإسلامي**، بحث منشور في المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، المجلد 5، العدد1.

(18) وقد أفرد صاحب بلوغ المرام بابا خاصا في كتاب النفقات للحديث عن نفقة البهائم لا تكاد تجد كتابا من كتب الفقه إلا ويتحدث عن النفقة على الحيوان، وفي هذا يقول ابن قدامة: نفقة الحيوان واجبة.

(19) رواه مسلم في كتاب، قتل الحيات ونحوه، باب تحريم قتل الهر.

(20) عبد الرحيم بن حسين العراقي: **طرح التثريب**، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ج8، ص243.

(21) رواه ومسلم، في كتاب قتل الحيات ونحوها باب فضل ساقي البهائم المحترمة.

(22) رواه أبو داود، في كتاب الجهاد، باب ما يؤمر به من القيام على الدواب والبهائم، حديث رقم 2549.

(23) رواه أبو داود والترمذي بإسناد صحيح، لكن فيه أبو يحيى القتات، وفي توثيقه خلاف، وروى له مسلم في **صحيحه**، النووي: **المجموع**، ج6، ص155.

(24) الشوكاني: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله (1250هـ)، تحقيق: عصام الدين الصبابطي، دار الحديث، مصر، ط1، 1993م، نيل الأوطار، ج8، ص99.

(25) رواه أبو داود، في كتاب الذبائح والصيد باب ما يكره من المثلة والمصبورة والمجثمة، حديث رقم 5515.

(26) يقول: ناصر سنة: لقد عرفت الحضارة الإسلامية المحميات الطبيعية واضعةً التشريعات للحفاظ على البيئة الحيوانية، فكانت مكة والمدينة أول المحميات الطبيعية: (وحُرم عليكم صيد البر ما دمتم حرماً) المائدة: 96، "أن هذا البلد . (مكة) . حرّمه الله لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا تلتقطُ لقطته إلا لمن عرفها"(8)، فكان ذلك أنموذجاً للعناية بالبيئة الحيوانية في مختلف بقاع الأرض: http://www.asharqalarabi.org.uk/markaz/m_abhath-21-08-10-1.htm

(27) رواه الإمام ملك في كتاب الجهاد، باب النهي عن قتل النساء والولدان في الغزو.

(28) رواه الإمام أحمد في مسند المكيين، حديث 15650.

(29) الزمخشري: محمود بن عمرو بن أحمد، (538هـ)، دار الكتاب العربي، بيروت، ط2، 1407هـ، **الكشاف**، ج1، ص606.

(30) يقول القرطبي: هذه الآية دليل على أن العالم له من الفضيلة ما ليس للجاهل؛ لأن الكلب إذا علم يكون له فضيلة على سائر الكلاب، فالإنسان إذا كان له علم أولى أن يكون له فضل على سائر الناس، لا سيما إذا عمل بما علم. محمد ابن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (671هـ)، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ج6، ص74.

(31) الزمخشري: **الكشاف**، ج1، ص606.

(32) ابن رجب: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي (795هـــ)، **لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف**، دار ابن حزم للطباعة والنشر، ط2، 2004مص315.

(33) يقول الماوردي في واجبات الحاكم: فأما المزارع فهي أصـــول المواد التي يقوم بها أود الملك وتنتظم بها أحوال الرعايا فصلاحها خصب وثراء وفسادها جدب وخلاء وهي الكنوز المدخورة والأموال المستمدة وأي بلد كثرت ثماره ومزارعه استقل بخيره وفاض على غيره فصارت الأموال إليه تجلب والأقوات منه تطلب وهو بالضد إن قلت أو اختلت. علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (450هـ)، تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك، المحقق: محي هلال السرحان وحسن الساعاتي، دار النهضة العربية، بيروتص 159 وما بعدها.

(34) https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%86%D8%A8%D8%A7%D8%AA

(35) وقد برع عدد من العلماء المسلمين في علم النبات ومن هؤلاء أحمد بن محمد بن مفرّج النباتي: فقد أتقن علم النبات، ومعرفة أشخاص الأدوية وقواها ومنافعها، واختلاف أوصافها، وتباين مواطنها. العدوي: مسالك الأبصار في ممالك الأمصارج9 ص586. وابن البيطار: عبد الله بن أحمد المالقي النباتي، قال ابن أبي أصيبعة فيه: "أوحد زمانه، وعلّامة أوانه، في معرفة النبات وتحقيقه واختباره ومواضع نباته، ونعت أسمائه على اختلافها وتنوعها، سافر إلى بلاد الأغارقة، وأقصى بلاد الروم، ووجد جماعة ممن يعاني هذا الفن، وأخذ عنهم معرفة نبات كثير وعاينه في مواضعه، واجتمع أيضا في المغرب وغيره بكثير من الفضلاء في علم النبات المرجع نفسه، ج9، ص612.

(36) ديورانت: ويليام جيمس (1981م)، **قصة الحضارة**، تقديم: الدكتور محيي الدّين صابر، ترجمة: الدكتور زكي نجيب محمُود وآخرين، دار الجيل، بيروت – لبنان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1988 م، ج13ص359.

(37) السرجاني: راغب، قصة العلوم الطبية فى الحضارة الإسلاميةص122.

(38) السرجاني: راغب، قصة العلوم الطبية فى الحضارة الإسلاميةص122.

(39) https://www.islamstory.com/ar/artical/27713/%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%B3%D9%84%D9%85%D9%88%D9%86_%D9%88%D8%AA%D8%B7%D9%88%D8%B1_%D8%B9%D9%84%D9%85_%D8%A7%D9%84%D9%86%D8%A8%D8%A7%D8%AA.

(40) الحطاب: محمد بن محمد بن عبد الرحمن الطرابلسي المغربي، المعروف بالحطاب الرُّعيني المالكي (954هـ)، مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، دار الفكر، ط3، 1992م، ج4، ص208.

(41) الجصاص: أحمد بن علي أبو بكر الرازي (370هـــ)، أحكام القرآن، المحقق: محمد صادق القمحاوي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1405 هـ، ج4، ص378.

(42) رواه البخاري، في كتاب المزارعة، باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، حديث رقم 2320.

(43) رواه البخاري، في الأدب المفرد، باب اصطناع المال، حديث رقم 479.

(44) البيهقي في السنن الكبرى، جماع أبواب السير، باب من اختار الكف عن القطع والتحريق إذا كان الأغلب أنها ستصير دار إسلام أو دار عهد، حديث رقم 18125.

(45) https://www.islamweb.net/ar/fatwa/63086/%D8%AD%D9%83%D9%85-%D9%82%D8%B7%D8%B9-%D8

%A7%D9%84%D8%B4%D8%AC%D8%B1-%D8%A7%D9%84%D9%85%D8%AB%D9%85%D8%B1

(46) رشيد رضا: تفسير المنار ج6 ص299.

(47) رواه أبو داود في كتاب الطهارة، باب المواضع التي نهى النبي ﷺ عن البول فيها، حديث رقم (26).

(48) الشلش: محمد، رؤية الشريعة الإسلامية ومنهجها في الحفاظ على البيئة دراسة في الواقع الفلسطيني، جامعة القدس المفتوحة، ص169.

(49) يقول حاجي خليفة: نقل عن بعض العلماء: لو علم عباد الله – تعالى – رضاء الله – تعالى – في إحياء أرضه، لم يبق في وجه الأرض موضع خراب. مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي القسطنطيني المشهور باسم حاجي خليفة أو الحاج خليفة (1067هـ)، كشف **الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، مكتبة المثنى، بغداد، 1941م، ج1، ص172.

(50) ابن طفيل: حي بن يقظان، ص21.

(51) وفي هذا يقول ديورانت: وقد عرف علماء الأحياء المسلمون طريقة إنتاج فواكه جديدة بطريق التطعيم، وجمعوا بين شجرة الورد وشجرة اللوز، وأوجدوا بذلك التطعيم أزهاراً نادرة جميلة المنظر. **قصة الحضارة** ج13ص188.

(52) رواه أبو داود في كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في، حيار الموات، حديث رقم 3073.

(53) ابن حجر: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، دار المعرفة، بيروت، 1379هـ، ج5ص18.

(54) عرفت (المادة 143) من المجلة حق الشرب بقولها: هو نصيب معين معلوم من النهر ويكون عاما أو خاصا بمزرعة أو بستان أو حديقة.

(55) يقول ابن نجيم: الماء هو الجسم اللطيف السيال الذي به حياة كل نام. زين الدين بن إبراهيم بن محمد، المعروف بابن نجيم المصري (970هـ)، البحر الرائق شرح كنز الدقائق وفي آخره: تكملة البحر الرائق لمحمد بن حسين بن علي الطوري الحنفي القادري (ت بعد 1138 هـ)، وبالحاشية: منحة الخالق لابن عابدين، دار الكتاب الإسلامي، ج1، ص69.

(56) رواه البخاري، في كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿**وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ**﴾ [الروم: 27]، حديث رقم 3191.

(57) القرطبي: **الجامع لأحكام القرآن**، ج12، ص291.

(58) الشنقيطي: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني (1393هـ)، **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع بيروت، لبنان1995 م، ج1، ص174.

(59) الغزالي: محمد بن محمد الطوسي، **المستصفى**، طبعة دار المعرفة، بيروت، ج4، ص142.

(60) مقاصد الشريعة الإسلامية في الحفاظ على الماء: أبو القاسم محمد أبو شامه، مجلة البحوث والدراسات الإسلامية، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة: العدد السادس، 2009م.

(61) وكان هذا العلم يسمى بعلم إنباط المياه، يقول حاجي خليفة: وللكرخي فيه: كتاب مختصر. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ج1، ص172.

(62) رواه ومسلم، في كتاب الطهارة باب النهي عن البول في الماء الراكد حديث رقم 94.

(63) يقول الأصفهاني: إذ لا إسراف إلَّا وبجانبه حق مضيع. الذريعة إلى مكارم الشريعة ص 285.

(64) يقول الأصـفهاني: ولكثرة مذام الإسـراف ذم الله تعالى أعظم مما ذم به البخل فقال: (وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ). الذريعة إلى مكارم الشريعة ص 286.

(65) رواه ابن ماجه، السنن، كتاب الطهارة، حديث رقم (425).

(66) يقول الأصـفهاني: وليس الإسـراف متعلقًا بالمال فقط، بل بكل شـيء وضـع في غير موضـعه اللائق به. الذريعة إلى مكارم الشريعة ص 286.

(67) انظر في هذا الموضـوع مبادئ ترشـيد اسـتهلاك المياه في الفقه الإسـلامي، دكتور عبد الحميد المجالي، بحث محكم منشـور في مجلة دراسات، علوم الشريعة والقانون، المجلد 32 العدد 5، السنة 2005مص273.

(68) العنصل: نبات شبه البصل، ورقة كورق الكراث ونوره أصفر، الفراهيدي: كتاب العين، ج2، ص383.

(69) النابلسي: الملاحة في علم الفلاحةص89.

(70) رواه مسلم، في كتاب الطهرة، باب النهي عن البول في الماء الراكد، حديث رقم 282.

(71) انظر بالتفصيل في هذا الموضوع رسالة الماجستير الموسومة بـــ: حكم تطهير واستعمال المياه العادمة في الفقه الإسلامي، إعداد الطالب ناصر دبوس بإشراف الدكتور جمال الحشاش، كلية الدراسات العليا جامعة النجاح الوطنية، 2012ن ص 14 وما بعدها.

(72) يقول الماوردي في واجبات الحاكم: أحدهما القيام بمصالح المياه التي هو عليها أقدر ولها أقهر حتى تدر فلا تنقطع وتعم فلا تمتنع ويشترك فيها القريب والبعيد ويستوي في الانتفاع بها القوي والضـعيف. تسـهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك ص 159 وما بعدها.

(73) ابن عاشور: محمد الطاهر بن محمد بن محمد (1393هـــ)، **التحرير والتنوير**، الدار التونسية للنشر، تونس، سنة النشر: 1984 هـ، ج22، ص111.

(74) الرازي: محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي (606هـــ)، **مفاتيح الغيب**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط3، 1420هـ، ج20 ص189.

(75) نظم الفقهاء أحكام الصـيد ولا تكاد تجد كتابا من كتب الفقه لا يتحدث عن أحكام الصـيد، وقد نص الفقهاء على تحريم الصـيد لمجرد اللهو، كما كره العلماء الإكثار من الصيد. القسطلاني: محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابي الحنفي بدر الدين العيني (ت 855هـ)، **عمدة القاري شرح صحيح البخاري**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ج21، ص92.

(76) نص الفقهاء على حرمة الصـيد أو كراهة في بعض الحالات ومن ذلك الصـيد لغير منفعة وفي هذا يقول ابن حجر: فلو لم يقصد الانتفاع به حرم؛ لأنه من الفساد في الأرض بإتلاف نفس عبثا. فتح الباري ج9، ص602.

(77) اعتبر الإسـلام المحافظة على النوع أحد الحقوق التي أثبتها الإسـلام للحيوان، القرالة: **حقوق الحيوان وضـماناتها في الفقه الإسلامي**.

(78) المجلة الأحكام العدلية، المادة (58).

(79) رواه أبو داود في كتاب الصيد، باب اتخاذ الكلب للصيد.

(80) أبو سليمان أحمد بن حمد بن محمد الخطابي، **معالم السنن**، ط2 بيروت، المكتبة العلمية، 1981، ج4ص289.

(81) تعرف لجنة برونتالند (Commission Brundtland) (التنمية المسـتدامة): بأنها تنمية تفي احتياجات الجيل الحايل، دون المساس بقدرة الأجيال المقبلة على الوفاء باحتياجاته. عوده الجيوسي: الإسلام والتنمية المستدامة رؤى كونية جديدةص22.

(82) https://ar.islamway.net/article/77891/%D9%88%D8%A7%D9%84%D8%B0%D9%8A%D9%86-%D8%AC%D8%A7%D8%A1%D9%88%D8%A7-%D9%85%D9%86-%D8%A8%D8%B9%D8%AF%D9%87%D9%85-%D9%8A%D9%82%D9%88%D9%84%D9%88%D9%86-%D8%B1%D8%A8%D9%86%D8%A7-%D8%A7%D8%BA%D9%81%D8%B1-%D9%84%D9%86%D8%A7-%D9%88%D9%84%D8%A5%D8%AE%D9%88%D8%A7%D9%86%D9%86%D8%A7-%D8%A7%D9%84%D8%B0%D9%8A%D9%86-%D8%B3%D8%A8%D9%82%D9%88%D9%86%D8%A7-%D8%A8%D8%A7%D9%84%D8%A5%D9%8A%D9%85%D8%A7%D9%86

(83) عودة الجيوسي: **الإسلام والتنمية المستدامة رؤى كونية جديدة**، ص166.

(84) النجار: عبد المجيد، **مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة**، دار الغرب، ط1، 2006مص 226.

(85) الباباني: إسـماعيل بن محمد أمين بن مير سـليم البغدادي (1399هـ)، **هدية العارفين أسـماء المؤلفين وآثار المصـنفين**، طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية اسـتانبول 1951م، أعادت طبعه دار إحياء التراث العربي بيروت، لبنان، ج2، ص49.

(86) رواه مالك، في الموطأ كتاب الأقضية باب القضاء في المرفق، حديث رقم 2758.

(87) رواه البخاري، في كتاب الجهاد والسير بلفظ ويميط، باب من أخذ بالركاب ونحوه، حديث رقم 2989.

(88) الشـلش: محمد، **رؤية الشـريعة الإسـلامية ومنهجها في الحفاظ على البيئة دراسـة في الواقع الفلسـطيني**، جامعة القدس المفتوحة، ص169.

(89) ذكر حاجي خليفة أن للشيخ أبي عبد الله الزناني كتابا عنوانه اللباب، في علم التراب. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، ج1، ص1541 وقد بحثنا في الكتب والموسوعات عن هذا الكتاب فلم نعثر سوى على ما ذكره حاجي خليفة.

(90) الأصفهاني: الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (502هـ)، **تفصيل النشأتين وتحصيل السعادتين**، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1983م، ص286.

(91) رواه البخاري، في كتاب الصلاة، باب قول النبي ﷺ: " جعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، حديث رقم 438.

(92) النجار: **مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة**، ص226.

(93) النابلسي: **عَلم المَلاحة في عِلم الفلاحة**، ص3 وما بعدها.

(94) النجار: **مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة**، ص 208.

(95) النجار: **مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة**، ص 217.